

٩٧ / ٤
١٤
٧

٧١٣

الحياة الاجتماعية في ولاية سورية

(١٨٤١-١٩١٤)

إعداد

عبيد موسى العشران

عميد كلية الدراسات العليا

المشرف

الدكتورة سهيلة الريماوي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في

التاريخ

كلية الدراسات العليا

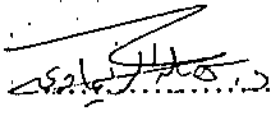
الجامعة الأردنية

كانون الأول ١٩٩٧

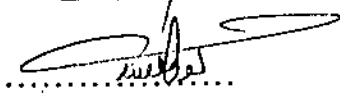
لجنة المناقشة

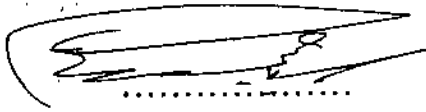
نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ١٣/١٢/١٩٩٢

التوقيع









أعضاء لجنة المناقشة

الدكتورة سهيلة الريماوي، رئيسا

الدكتور علي محافظه

الدكتور نونات الوارث

الدكتور بسام الحبيب

الإهداء

إلى والديّ الحبيين اللذين سانداني في أصعب الظروف.
 إلى روح المرحوم أخي نايل العشران رفيق دربي الدراسي.
 إلى الأمل المشرق بحياتي ولدي الحبيب عبد الله.

عبير

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير:

الحمد لله الذي مكّني من إتمام هذه الدراسة، ويسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أستاذتي الفاضلة الدكتورة سهيلة الريماوي لتفضلها مشكورة بالإشراف عليها، ولما شملتني به من رعاية وإرشاد طيلة فترة إعدادها.

كما أتقدم بجزيل الشكر لجميع أساتذتي في قسم التاريخ الذين كان لهم الفضل في تنمية قدراتي على البحث والدراسة.

وأقدم بخالص الشكر والعرفان لإخواني وأخواتي، وإلى كل من ساعد في إخراج هذه الدراسة إلى حيز الوجود.

الباحثة

المحتويات

ب	قرار لجنة المناقشة
ج	الإهداء
د	الشكر
هـ	فهرس المحتويات
ز	فهرس الجداول
ح	ملخص باللغة العربية
١	المقدمة
٤	تحليل المصادر والمراجع
١٠	الفصل الأول / الأوضاع العامة في ولاية سورية
١١	السكان والطائفية
١٤	التنظيمات
١٨	حوادث ١٨٤٠م
١٩	حادثة ١٨٦٠ ونتائجها
٢١	الأوضاع السياسية والثقافية
٢٩	الأوضاع الاقتصادية
٣٢	الفصل الثاني / الطبقات الاجتماعية في ولاية سورية
٣٣	الحكام والولاة
٣٨	العلماء وأتباع الطرق الصوفية
٤٤	الحرفيون والصناع
٥٠	طبقة العبيد
٥٢	الفصل الثالث / الحياة الاجتماعية في المدن
٥٣	الأسرة
٥٧	البيوت وموجوداتها
٦٠	الأزياء وأدوات الزينة
٦٥	المأكل والمشرب

٦٧	العادات والتقاليد
٦٩	الأوضاع الصحية
٧٤	الأمن
٧٧	الفصل الرابع / الحياة الاجتماعية في الريف
٧٨	الطبقات الاجتماعية في الريف
٨٤	الأمن
٨٨	المأكل والمشرب
٨٩	الأزياء
٩٣	الأسرة
٩٥	الأوضاع الصحية
٩٧	الفصل الخامس / الحياة الاجتماعية في البادية
٩٨	عشائر البدو وتقسيماتها
١٠١	الصلح العشائري
١٠٥	صفات البدو وعاداتهم
١٠٧	الروابط بين القبائل
١٠٨	الأمن
١١٢	الأزياء
١١٥	المأكل والمشرب
١١٧	الأسرة
١٢٠	الأوضاع الصحية
١٢٢	الخاتمة
١٢٥	قائمة المصادر والمراجع
١٤٦	الملخص باللغة الإنجليزية

ملخص

الحياة الاجتماعية في ولاية سورية
(١٨٤١-١٩١٤م)

إعداد

عبير موسى العشران

المشرف

الدكتورة سهيلة الريماوي

تناولت هذه الدراسة الحياة الاجتماعية في ولاية سورية خلال الفترة ١٨٤١-١٩١٤م في خمسة فصول، وقد مهدت الباحثة للموضوع بإعطاء فكرة موجزة عن الأوضاع السياسية والإدارية في الولاية قبيل فترة الدراسة وأثناءها. وكان موضوع الفصل الأول هو الأوضاع العامة في الولاية. أما الثاني فقد تناول الطبقات الاجتماعية فيها. وخصصت الفصول الثلاثة التالية لبحث الحياة الاجتماعية في المدن، وفي الريف، وفي البادية على التوالي.

وبدراسة الحياة الاجتماعية في ولاية سورية خلال تلك الفترة المحددة أمكن التعرف على التنظيمات الإدارية العثمانية التي تم تطبيقها في الولاية خلالها، وعلى فئات سكانها وطوائفهم وأوضاعهم السياسية والاقتصادية. كما أمكن التعرف على طبيعة الحياة الاجتماعية في كل من مدن ولاية سورية وأريافها وبواديها. وأبرز ما تميز به كل مجتمع من مجتمعات هذه المناطق من حيث مأكله ومشربه وأزيائه وعاداته وتقاليده وأوضاعه الصحية والثقافية والأمنية أيضاً.

وقد انتهت الدراسة بخاتمة تضمنت النتائج التي أمكن التوصل إليها، وأهم ما تقترحه الباحثة من توصيات، وأبرزها توجيه الباحثين إلى دراسة الحياة الاجتماعية في ولاية سورية خلال الفترات السابقة لفترة الدراسة.

الجداول

رقم الجدول	الموضوع	الصفحة
١	توزيع السكان عرقيا لسنة ١٨٧٦م	١٣
٢	عدد السكان في ولاية سوريا عام ١٩٠٦م	١٤
٣	جوامع ومساجد ومدارس وتكايا الولاية	٤٣

الحياة الاجتماعية في ولاية سورية (١٨٤١-١٩١٤م)

المقدمة

خضعت بلاد الشام لحكم المصريين في الفترة (١٨٣١-١٨٤١م) وعلى الرغم من قصر هذه الفترة الزمنية إلا أنها تركت تأثيرها في البلاد في مختلف النواحي، فقد نشر المصريون روح الديمقراطية وأطلقوا الحريات الدينية، وألّفوا مجالس مشورة تمثل الشعب، وأرسوا قواعد الأمن، وفرضوا التجنيد الإجباري^(١). وبالرغم من هذه الإصلاحات فقد ارتكبت أخطاء جعلت حكمهم يتزعزع في إدارة البلاد مثل الضرائب الباهظة، والاحتكار الاقتصادي والتجنيد الإجباري الذي لم يعرفه الأهالي من قبل^(٢).

وعندما دخل المصريون بلاد الشام أدخلوا تغييرات جذرية على تقسيماتها الإدارية السابقة، فقد ألغى إبراهيم باشا إيالاتها، وعين في كانون الأول سنة ١٨٣١م متسلماً على كل مدينة من المدن الساحلية مثل: صور وصيدا وبيروت وطرابلس، وجعل هؤلاء المتسلمين تابعين إدارياً له مباشرة، إلا أنه لم يلبث أن عدل عن هذا النظام وفوض إلى الأمير بشير الشهابي إدارة تلك المدن^(٣). وأصبحت في سنة ١٨٩٣م مقسمة إلى سبع مديريات هي: الشام وحلب وصيدا وطرابلس الشام ويافا وأضنه^(٤).

وعاد العثمانيون إلى بلاد الشام سنة ١٨٤٠م، وأعادوا معهم تشكيلاتهم الإدارية مع بعض التغييرات الطفيفة. وقد ضمت إيالة الشام في سنة ١٢٦٦هـ/١٨٥٠م الألوية التالية: لواء الشام الشريف أو لواء دمشق، ولواء حمص، ولواء حماه، ولواء عجلون الذي ضم بالإضافة إلى عجلون: إربد والبلقاء^(٥). وتشكلت الإيالة في سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م من (٢٧) قضاء كانت

(١) أبو عز الدين، سليمان إبراهيم باشا في سوريا، ص ٣١٠-٣١٧.

(٢) الجالودي، عليان، قضاء عجلون، ص ٨.

(٣) عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٦٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٦٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٦٤-٦٥.

موزعة على النحو التالي: لواء الشام (١٦ قضاء)، لواء حمص (قضاءان)، لواء حماه (٣ أقضية) ولواء حوران (قضاءان)، ولواء عجلون الذي ضم أقضية عجلون مع توابع إربد، والبلقاء مع الكرك. وظل معمولاً بهذا التقسيم حتى سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م^(١).

ففي ٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٨١هـ/٨ تشرين الثاني ١٨٦٤م صدر قانون تشكيل الولايات العثمانية، وقد أعادت الدولة بموجبه النظر في التقسيمات الإدارية لولاياتها حيث ضمت ولايات إلى ولايات أخرى وشكلت ولايات جديدة، وبموجب هذا القانون قسمت بلاد الشام إلى ولايتين هما: ولاية سورية، وولاية حلب. وبدأ اسم سورية يظهر في سالنامة الدولة العثمانية اعتباراً من سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م، واستمر هذا الاسم حتى نهاية العهد العثماني، غير أن استقرار الاسم لم يواكبه ثبات حدود الولاية الإدارية، فقد فصل عنها لواء القدس سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م^(٢)، ثم فصلت عنها ألوية: طرابلس وبيروت وعكا واللاذقية ونابلس في فترات متلاحقة^(٣). وأصبحت في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م تضم أربعة ألوية فقط هي: الشام، وحماه، وحوران، والكرك^(٤).

وكان لواء الشام أو دمشق أهم هذه الألوية الأربعة التي تألفت منها ولاية سورية، فقد اعتبرته الدولة العثمانية من الصنف الأول. واشتمل هذا اللواء على عدد من الأقضية استقرت في سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م على ما يأتي: قضاء الشام، وقضاء بعلبك، وقضاء البقاع، وقضاء النبك، وقضاء دوما، وقضاء وادي العجم، وقضاء حاصبيا، وقضاء راشيا، وقضاء الزبداني^(٥).

أما لواء حماه فقد اعتبر من الصنف الثاني، وضم المناطق الشمالية من ولاية سورية، واشتمل على عدد من الأقضية استقرت في أواخر العهد العثماني على أربعة هي: حماه، وحمص، والسلمية، والحميدية^(٦).

(١) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٦٥-٦٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧١.

(٣) سالنامة ولاية سورية، سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م، ص ١٥٥.

(٤) المدني، زياد، التنظيمات العثمانية في ولاية سورية، في كتاب بحوث في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني، ص ١٥٥.

(٥) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٧٤-٧٥.

(٦) المرجع نفسه، ص ٧٦.

وشهد لواء حوران تغييرات مستمرة من الناحية الإدارية وخاصة فيما يتعلق بمركزه، فقد كان أول الأمر (مزيريب) ثم أصبح قرية (شيخ سعد) وأصبح في نهاية العهد العثماني (شيخ مسكين). وكان لواء حوران في سنة ١٢٧٦هـ/١٨٧٠م يضم الأقضية التالية: قضاء حوران، وقضاء عجلون، وقضاء القنيطرة، وقضاء بصرى الحرير، وقضاء درعا، وقضاء السويداء، وقضاء صلخد، وقضاء عاهرة^(١).

وأما منطقة الكرك فقد أصبحت لواء سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م، وعُرف بلواء الكرك أو لواء معان، وكانت الدولة العثمانية قبل ذلك تدرج الكرك في (السالنامة) تحت لواء عجلون، وعندما أدمج قضاء عجلون في لواء حوران سنة ١٨٦١م أصبحت الكرك قضاء من أقضية لواء حوران ثم فصلت عنه وألحق بلواء البلقاء سنة ١٨٦٨م، ثم ألحق بلواء نابلس. وكان لواء الكرك في سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م يضم أربعة أقضية هي: الكرك، ومعان، والطفيلة، والسلط^(٢).

وقد اقتضى موضوع الدراسة تناول الحياة الاجتماعية في المدن والأرياف والبادية. وللإحاطة بالموضوع من جوانبه المختلفة تم تقسيم الدراسة إلى خمسة فصول بحث أولها الأوضاع العامة في ولاية سورية، فتناول الأوضاع السكانية والسياسية والثقافية والاقتصادية بشكل عام. وتناول الفصل الثاني الطبقات الاجتماعية في المدن وهي طبقة الحكام والولاة، وطبقة العلماء وأتباع الطرق الصوفية، وطبقة الحرفيين والصناع، وطبقة العبيد. أما الفصول الثلاثة التالية فقد تناولت الحياة الاجتماعية في المدن وفي الريف، وفي البادية على التوالي، حيث تحدث كل منها عن جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة من طبقات اجتماعية، وأمن، وأزياء، وعادات، ومأكول ومشرب، وأوضاع صحية، إضافة إلى الأسرة كوحدة أساسية لكل من مجتمع المدينة والقرية والبادية.

وقد انتهت هذه الدراسة بخاتمة ضمت أهم النتائج التي توصلت إليها، وطرحت عدداً من التوصيات التي تأمل الباحثة أن يؤخذ بها.

(١) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٩.

تحليل المصادر والمراجع

اعتمدت الباحثة في إعداد هذه الدراسة على مجموعة متنوعة من المصادر الأساسية كان أهمها سجلات محكمة دمشق الشرعية والسنائنات وكتب الرحلات والصحف والمجلات المعاصرة. وفيما يلي عرض لهذه المصادر:

١. سجلات محكمة دمشق الشرعية:

تعتبر هذه السجلات مصدراً مهماً لدراسة بلاد الشام من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فقد رسمت صورة واقعية لمجتمع الدراسة من حيث تنوع عناصره السكانية، والعلاقة القائمة بين هذه العناصر. وأمدتنا بمعلومات عن العشائر وشيوخها، بالإضافة إلى معلومات عن التركات وعادات الزواج والمصاهرة والمهور وعمل النساء، وخاصة قيامهن بالبيع والشراء. وقد أعطت السجلات صورة واقعية للسكان من حيث تنوع العناصر السكانية والعلاقة بين هذه العناصر، وأمدتنا كذلك بمعلومات عن عادات الزواج والمصاهرة والمهور، واشتملت على معلومات مهمة عن بيوت السكان ومكوناتها. وتنفرد هذه السجلات بإيراد معلومات عن الصناعات والحرف كالصناعات الغذائية مثل: طحن الحبوب والسمن والجميد والعسل، وكذلك الصناعات الجلدية، وحرف الصباغة والصياغة. وفيما يلي جدول بأرقام السجلات التي اعتمدت عليها هذه الدراسة.

السنة	رقم السجل	
١٢٥٨هـ/١٨٤١م	٣٦٩	١.
١٢٥٧-١٢٥٨هـ/١٨٤٠-١٨٤١م	٣٧٠	٢.
١٢٧١هـ/١٨٥٤م	٣٨٦	٣.
١٢٧٢هـ/١٨٥٥م	٤٧٢	٤.
١٢٧٩هـ/١٨٦٢م	٥٥٠	٥.
١٢٨١هـ/١٨٦٤م	٥٥٨	٦.
١٢٨٦هـ/١٨٦٩م	٦١٤	٧.
١٢٨٦-١٢٨٧هـ/١٨٦٩-١٨٧٠م	٦١٤	٨.
١٢٨٧هـ/١٨٧٠م	٦٢١	٩.
١٢٨٤-١٢٨٧هـ/١٨٧٦-١٨٧٠م	٦٢١	١٠.
١٣٢٤هـ/١٩٠٦م	٦٥٠	١١.
١٣٢٤-١٣٢٥هـ/١٩٠٦-١٩٠٧م	٦٥٠	١٢.

٢. السالنامات:

سالنامة ولاية سورية:

وهي تقويم سنوي كان يصدر عن حكومة الولاية بهدف إبراز نشاطات هذه الحكومة وإصلاحاتها في المجالات الإدارية والعسكرية والاجتماعية والتعليمية والعمرانية.

وقد أمدتنا السالنامات بمعلومات مفيدة عن التطور الإداري في الولاية، والتقسيمات الإدارية. وأوردت معلومات عن القبائل البدوية في الولاية وعدد أفراد هذه القبائل، بالإضافة إلى معلومات عن الطوائف غير الإسلامية. وانفردت بذكر معلومات قيمة عن المدارس الرسمية والطائفية في الولاية وأسماء المعلمين وعدد الطلبة، وعدد المكاتب وأسماء المدرسين.

وفيما يلي جدول بأهم السالنامات التي اعتمدت عليها الدراسة:

١.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م
٢.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م
٣.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣٠٠-١٣٠٢هـ/١٨٨١-١٨٨٣م
٤.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م
٥.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م
٦.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣١٠-١٣١١هـ/١٨٩٢-١٨٩٣م
٧.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م
٨.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣١١-١٣١٢هـ/١٨٩٣-١٨٩٤م
٩.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م
١٠.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م
١١.	سالنامة ولاية سورية سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م

٢. كتب الرحلات:

تعتبر كتب الرحلات من المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة، وترجع أهميتها إلى كونها مشاهدات لرحالة دونوا ما شاهدوه في الأماكن التي مروا بها، وأهم هذه الرحلات:

- أ. تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، لمؤلفها إبراهيم الخياري (ت ١٠٨٣هـ/١٧٦٦م). وتعتبر رحلته من المصادر المهمة فيما يتعلق بقلاع طريق الحج الشامي، فقد أورد بعض المعلومات عن الخانات والمنازل على هذه الطريق، وعلى الطريق الممتد بين دمشق وغزة. كما أورد معلومات عن عادات وتقاليد السكان في المناطق التي مر بها. وتعتبر رحلته مصدراً أساسياً لدراسة الحالة الداخلية التي كانت عليها بلاد الشام.
- ب. رحلات الشيخ عبد الغني النابلسي (ت ١٤٠٣هـ/١٨٨٦م). وشملت رحلته جزءاً واسعاً من بلاد الشام فذكر عادات وتقاليد السكان فيها، وتطرق إلى وصف الريف في المنطقة.

ج. رحلات بيركهارت: وهي المعروفة برحلة سورية الجنوبية، وتعتبر رحلته من أفضل كتب الرحلات التي قدمت وصفاً دقيقاً لحياة السكان وطبيعة معيشتهم وطبيعة الحكم العثماني ووصف طريق الحج الشامي.

٣. الصحف والمجلات:

تعد الصحف والمجلات المعاصرة لفترة الدراسة من أهم المصادر التاريخية التي اعتمدت عليها لما احتوته من معلومات قيمة وتفصيلية عن منطقة الدراسة، وفيما يلي أسماء الصحف والمجلات وأهميتها:

أ. صحيفة سورية، جريدة الولاية الرسمية:

صدرت في دمشق سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٥م، وهي ناطقة باللغتين العربية والتركية، وكانت تهتم بنشر القوانين والأنظمة التي تهم الولاية، وأشارت إلى اهتمام الولاة بمناطق الولاية، وإرسال قوات للمناطق للإشراف على الأمن أو تأديب بعض القبائل. كما أشارت إلى اهتمام والي سورية ومجلس الولاية بإسكان المهاجرين والبدو في المنطقة. واهتمت أيضاً بأوضاع المنطقة الصحية.

ب. صحيفة البشير:

صدرت في بيروت سنة ١٢٧٦هـ/١٨٧٠م عن الكنيسة الكاثوليكية، وأوردت معلومات قيمة عن ولاية سورية وخاصة عن تحركات القبائل ومواجهة الدولة لها، وتحوال والي سورية ومتصرف الكرك في المنطقة للإشراف على الأمن والنظام وتقعد أحوال الأهالي. وأوردت معلومات مفيدة عن أحوال الزراعة والآفات التي تعرضت لها، والمحاصيل والأسعار والضرائب والرسوم التي كان يدفعها السكان. واهتمت الصحيفة بالوضع الصحي في الولاية وانتشار بعض الأوبئة.

ج. صحيفة المقتبس:

أسس هذه الصحيفة وأشرف على تحريرها محمد كرد علي في دمشق سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، واهتمت الصحيفة بالأوضاع الإدارية والاجتماعية والصحية للولاية. ومما زاد من قيمة المعلومات التي أوردتها هذه الصحيفة أن محررها زار مناطق الولاية وكتب عنها، وذكر فيها معلومات مفيدة عن البدو، وعن أبرز الأحداث السياسية في منطقتي الكرك وحوران. وكانت الصحيفة تنشر ردود الفعل على المقالات التي تنشرها مما زاد من قيمة المعلومات التي أوردتها.

د. صحيفة الاتحاد العثماني:

صدرت في بيروت سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، واهتمت بنقد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وخاصة الضرائب، ونقد الأوضاع التعليمية وبخاصة التعليم الحكومي.

هـ. صحيفة العصر الجديد:

صدرت في بيروت سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، وكان مجال اهتمامها النواحي الأدبية والسياسية والعلمية والتجارية والزراعية، وقد قدمت هذه الصحيفة معلومات عن تصرفات موظفي الحكومة خاصة جباة الضرائب أثناء قيامهم بوظيفتهم.

و. مجلة المشرق:

صدرت المشرق عن كلية القديس يوسف في لبنان سنة ١٨٩٨م، وزودت بمعلومات مهمة عن النواحي التعليمية والأدبية للسكان وعن الحوادث السياسية وأهمها حادثة عام ١٨٦٠م.

ز. مجلة المقتطف: صدرت في بيروت سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، واشتملت على معلومات قيمة عن الحالة الصحية والأوبئة المنتشرة، وأسباب انتشارها، كما أشارت إلى حالة التعليم في الولاية.

المراجع الحديثة:

ويأتي في مقدمة الدراسات الحديثة كتابا عبد الكريم غرابية: سورية في القرن التاسع عشر، وعبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية. فقد أفدت منها في تاريخ ولاية سورية وألويتها وأقضيتها، ومعرفة الأوضاع الاقتصادية والثقافية والتنظيمات العثمانية.

بالإضافة إلى ما تقدم من مراجع حديثة أفدت كذلك من كتاب أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام، وكان اعتمادي كبيراً عليه في الفصل الخامس لدراسة تقسيمات البدو وعشائرتهم وممارساتهم اليومية وعملهم.

واعتمدت على عدد من الرسائل الجامعية التي تناولت الحياة الاجتماعية، كرسالة هند أبو الشعر: أربد وجوارها، ورسالة جروج طريف: مدينة السلط.

٥. مصادر أخرى:

أ. محمد كرد علي: خطط الشام. ويحتوي على كثير من المعلومات الإدارية والاقتصادية والعادات السائدة عند السكان.

ب. محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية. ويشير القاموس إلى (٤٤٥) مصطلحاً يتعلق كل منها باختصاص مختلف في مجال الحرف الإنتاجية والتجارة والخدمات، ويشمل القاموس على مصطلحات تدل على فئات اجتماعية كمعلم وأجير وأستاذ ومزابع وتاجر وعامل. وشدد القاموس على نشاط السكان في المدن وتحديداً الذين لا يعملون بالزراعة، وذكر بعض الحرف التي مارسها اليهود.

٤٩٩.٠٣٣

الفصل الأول

الأوضاع العامة في ولاية سورية

١. السكان والطائفية.
٢. التنظيمات.
٣. حادثة ١٨٦٠ ونتائجها.
٤. الأوضاع الثقافية والسياسية.
٥. الأوضاع الاقتصادية.

الأوضاع العامة في ولاية سورية

تمهيد:

شهدت ولاية سورية خلال فترة الدراسة تغيرات وتطورات كثيرة في المجالات الثقافية والحزبية والاقتصادية، وفي مجال التنظيمات الإدارية والعسكرية. ووقعت فيها أحداث خطيرة كان أبرزها تلك الحادثة، بل قل: المذبحة التي وقعت بين الدروز والموارنة في لبنان سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م وامتدت إلى دمشق، وذهب ضحيتها عدد كبير من السكان. وسبقها فتنة ١٨٤٠م (١٢٥٧هـ) التي استمرت حتى سنة ١٨٤٥م (١٢٦٢هـ).

وكان السكان بأديانهم وطوائفهم وأجناسهم المختلفة والعديدة هم الذين صنعوا تلك الأوضاع أو صنعت من أجلهم، أو كانوا سبباً في تشكيلها. ولمعرفة تفاصيل هذه الأوضاع لا بد من التطرق إلى السكان، والتعرف على فئاتهم وأعدادهم من كل فئة، ونشاطاتهم، ومن ثم التطرق إلى التنظيمات وتطوراتها منذ العهد العثماني الأول الذي بدأ في الأقطار السورية في أوائل القرن السادس عشر، وما جرى في أثناء ذلك من أحداث بارزة وخاصة حادثة سنة ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ) التي سبقت الإشارة إليها. وتناول ما شهدته الولاية من أوضاع ثقافية وحزبية واقتصادية، لتكتمل بذلك صورة واضحة للأوضاع العامة في الولاية خلال فترة الدراسة.

السكان والطائفية:

يشكل المسلمون غالبية السكان، وقد انقسموا إلى سنة وشيعة ونصيرية ودروز، واستقر الدروز في حوران في وادي اليتيم، وفي جبل لبنان^(١)، أما النصاري فقد انقسموا إلى روم أرثوذكس وروم كاثوليك وسريان وأرمن وأقباط ولاتين وإنجيليين^(٢).

(١) غرايبة، سورية، ص ١١١.

(٢) محافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند المسلمين، ص ١٥٩.

وقد أنشأ الروم الأرثوذكس كنائس عديدة لهم في المدن السورية، ولعبوا دروا كبيرا في نشر العلم في دمشق وحمص وبيروت، حيث أسسوا جمعية المدارس الأرثوذكسية في حمص، بالإضافة إلى جمعية أخرى في بيروت وهي الجمعية السورية الأرثوذكسية^(١).

أما الأرمن فقد استقر بعضهم في حلب وعملوا بالصناعة الحرفية والتجارة^(٢). وكان لهم كنيسة صغيرة في دمشق ألحقت بها مدرسة ابتدائية تدرس بالارمنية^(٣). وقد أسس اليسوعيون أديرة خاصة لهم في دمشق وصيدا وطرابلس، وأسسوا المطبعة الكاثوليكية في بيروت عام ١٨٤٨م. ثم أصدروا عام ١٨٧١م صحيفة البشير^(٤).

أما اليهود فقد عاشوا في القدس وصفد وطبريا ويافا حيث ارتفع عددهم عام ١٨٩٥م إلى مائة وخمسين ألف يهودي منهم حوالي ثمانية وعشرون ألفا في القدس، وسبعة آلاف في صفد^(٥)، وسيطروا على تجارة صفد ودمشق، وكان لهم دور كبير في حلب وبيروت وعكا وحيفا^(٦). ومارسوا مهنا مختلفة، فقد عمل بعضهم في النقاشة على أصناف الأواني في دمشق^(٧)، وعمل بعضهم الآخر وخاصة الفقراء منهم في مهنة (الخرقي) وهو من يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويفرقها بعد ذلك^(٨)، بينما مارس البعض مهنة الكباريتي، وهي بيع الكبريت خاصة في دمشق^(٩).

واستقر الشركس في مناطق مختلفة في دمشق والقنيطرة وعلان وحماء، كما استقروا في ولاية حلب^(١٠)، وكان لهم دور كبير في المحافظة على الأمن في الولاية، وأوكلت إليهم الدولة حماية الخط الحديدي الحجازي، كما شاركوا في إخماد ثورة الكرك ١٩١٠م^(١١)، وأشركتهم

(١) غرايبة، عبد الكريم، سورية، ص ١١٧.

(٢) عيساوي، شارل، التاريخ الاقتصادي للبلاد الخصيب، ص ٦١.

(٣) غرايبة، مرجع سابق، ص ١٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٥) عيساوي، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٦) غرايبة، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٧) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ٢، ص ٤٨٦.

(٨) المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٩) المرجع نفسه، ص ٣٨٢.

(١٠) عيساوي، المرجع السابق، ص ٦١.

(١١) الحمود، ثوفان، عمان وجوارها، ص ١٣٥.

الدولة أيضا في القضاء على تمرد الدروز في جبل حوران عام ١٨٩٦م، وشكلت الدولة منهم عام ١٨٩٧م قوة عسكرية عرفت باسم: القوة السيارة لتتولى حماية لواء الكرك وحوران، كما أوكلت إليها مهمة الحفاظ على الفلاحين من هجمات البدو^(١).

وما يمكن استنتاجه مما تقدم هو أن سكان ولاية سورية كانوا من أجناس مختلفة، ولكن غلب عليهم الجنس العربي، فالعرب هم السكان الأصليون أصحاب الأرض، ومعظمهم يدينون بالإسلام وبقيتهم بالمسيحية. أما الأجناس الأخرى التي وجدت في الولاية فهم: الأتراك والأكراد والإيرانيون^(٢) والأرمن^(٣) واليونان بالإضافة إلى اليهود وغيرهم^(٤).

جدول (١): توزيع السكان عرقيا لسنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م^(٥):

العرق	العدد (نسمة)	النسبة للمجموع الكلي
عرب بمن فيهم المغاربة	١٣٠٩٠٠	%٨٨,٣٥٥
أتراك	٤٠٠٠	%٢,٧
أكراد	٦٠٠٠	%٤,٠٥
إيرانيون	٦٠٠	%٠,٤٠٥
أرمن	٦٠٠	%٠,٤٤٥
إفرنج ويونان	٣٥٠	%٠,٢٤٣
سريان	٣٠٠	%٠,٢٠٣
يهود	٥٤٠٠	%٣,٦٤
المجموع	١٤٨١٥٠	%١٠٠

(١) الجالودي، قضاء عجلون، ص ٦٥.

(٢) الزواهره، تيسير، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق، ص ٢٤.

(٣) النمر، إحسان، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج ١، ص ٢١.

(٤) نعيسه، يوسف، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٨٨.

(٥) المقتطف، السنة ٣، م ٩، سنة ١٨٧٨م، ص ٢٥١.

جدول (٢): عدد السكان في ولاية سورية عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٦م^(١):

الولاية	عدد السكان
الشام (دمشق)	٥٣.٠٠٠
ضواحي دمشق	٢.٠٠٠
لواء حماه	٤.٠٠٠
لواء حوران	١٥.٠٠٠
لواء الكرك	٨.٠٠٠

التنظيمات:

كانت سورية أول قطر عربي يدخله الأتراك العثمانيون، فبعد انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م بدأ السلطان سليم الأول حركة التوسع العثماني في الوطن العربي، وأتمها ابنه سليمان القانوني، وأسفرت هذه الحركة عن زوال السلطنة المملوكية حيث حلت محلها ولايات عثمانية في القاهرة ودمشق وحلب وطرابلس. ويمكن تقسيم تاريخ سورية في العهد العثماني إلى ما يلي^(٢):

١. العهد العثماني الأول (١٥١٦-١٨٣١م) أي منذ دخول السلطان سليم الأول الأقطار السورية إلى دخول القوات المصرية هذه الأقطار وضمها إلى حكم محمد علي.

٢. عهد الحكم المصري في الشام (١٨٣٠-١٨٤١م): وكان هذا الحكم امتداداً للحكم العثماني على اعتبار أن مصر وسورية بقيتا جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وتميز هذا العهد بالحكومة المركزية القوية، أو محاولة إخضاع العصبيات والطوائف المحلية، واتباع سياسة التجديد. وبذلك فقد مهد هذا العهد للعهد التالي في سورية.

٣. عهد التنظيمات (١٨٣٩-١٩١٤م) أي منذ عهد السلطان عبد المجيد حتى الحرب العالمية الأولى وانتهاء الإمبراطورية العثمانية: ويتميز هذا العهد باتباع العثمانيين فلسفة

(١) المقطف، ج ١، المجلد ٣١، كانون الثاني، ص ١٧٦.

(٢) عبد الكريم، أحمد عزت، المقدمة في كتاب حوادث دمشق اليومية لأحمد البديري الحلاق، ص ٨-٩.

جديدة في الحكم قوامها تشديد قبضة الحكومة على ولاياتها، وتوثيق ربطها بالحكومة المركزية، والتوجه نحو التجديد، واتخاذ التدابير اللازمة لذلك. وكان حافز السلاطين العثمانيين إلى الإصلاح هو الهزائم العسكرية المتلاحقة التي مني بها جيشهم، لذلك استهدفت الإصلاحات الجيش بالدرجة الأولى، وذلك بغية تثبيت الحكم^(١).

خط شريف كلخانة سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٣٩م:

صدر هذا الخط في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١م) بحضور الوزراء والعلماء والسفراء الأجانب، وكان لحكم محمد علي أثر في إصداره حيث بدأ التدخل في شؤون التعليم والقضاء والمواصلات والصحة، وأعلنت المساواة على غرار الحكم المصري^(٢). وكان الهدف من إصداره أيضا استجداء دعم الدول الأوروبية ضد محمد علي لإخراجه من بلاد الشام، بالإضافة إلى قناعة السلطان بضرورة القضاء على التخلف والجمود في الدولة، الذي استشرى منذ مائة وخمسين عاما، ووقوع التعديات على الناس في الأموال والأنفس والحقوق، فقد أصدر مرسومه لرفع هذه المظالم^(٣).

وقد تضمن خط شريف كلخانة وعدا من السلطان بتأمين الرعية على أموالهم وأعراضهم وأرواحهم، وإصلاح الإدارة والقضاء، وتنظيم طلب العسكر ومدة خدمتهم في الجيش. كما أمر السلطان بجباية الأموال بمقتضى أحوال الشرع، وإلغاء الالتزام والقضاء على الرشوة^(٤).

غير أن بنود هذا الخط بقيت حبرا على ورق، فالسلطان عبد المجيد لم يحاول تطبيق أي مبدأ من المبادئ التي أطلقها، كما أنه لم يحاول تحديد مؤسسات لتنفيذ تلك المبادئ، ويبدو أنه لم يجد ضرورة لتنفيذها بعد أن زال خطر التهديد المصري، ولكنه، أي السلطان عبد المجيد، تعهد باحترام الحريات العامة للأشخاص بغض النظر عن ديانتهم وعرقهم.

(١) رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦م)، ص ٣٧٧.

(٢) مخزوم، محمد، التنظيمات العثمانية محاولات فاشلة للإفلات من براثن التغلغل الأوروبي، مجلة العرب والعالم، العدد ٥٧، آذار ١٩٨٥، ص ١٥.

(٣) الشريف، منير، قصة الأرض في سوريا، ص ٢٨.

(٤) غرابية، سورية، ص ٢٥-٢٦؛ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص ٣٣.

لقد صدر خط التنظيمات الخيرية أثناء المحادثات المتعلقة بمعاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م، ووجهه السلطان إلى الصدر الأعظم علي باشا، وأهم ما جاء فيه: إقرار امتيازات الطوائف غير الإسلامية بعد إعادة النظر في تنظيماتها من قبل الطوائف، والتسامح مع الذميين في معابدهم والمساواة في معاملة أهل الذمة بالمسلمين. ووعد السلطان بإجراء إصلاحات شاملة في مجالات المالية، والمعارف، والمواصلات، والزراعة، والتجارة^(١).

وكان هذا الخط لصالح الأجانب أكثر مما كان لصالح غيرهم، ففي الوقت الذي اعترف فيه بالمساواة بين جميع رعايا الدولة زاد من التكتل الطائفي، ومن تطلعات الملل والطوائف نحو الدول الأوروبية، مما سهل مهمة دخول الدول الأوروبية إلى أراضي الدولة العثمانية فيما بعد. ويلاحظ أيضا أن هذا الخط لم يؤثر على الوضع الاجتماعي للسكان، ذلك أن عملية الدمج بين المسلمين وغير المسلمين لم تتم.

ويمكن القول بشكل عام أن حركة التنظيمات كان لها بعض الآثار الإيجابية على ولايات الدولة العثمانية، فقد انتشرت المدارس في الولايات العربية، وخاصة العسكرية ولكن بدرجات متفاوتة، وأصبح النشاط في الجمعيات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية قويا في بلاد الشام في مجال الثقافة والعلوم^(٢). أما ولايات العراق فكانت فائدتها أكبر من المدارس العسكرية العثمانية. ومع أن منشور التنظيمات أعلن مبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، إلا أن الحكومة لم تستطع أن تطبق المبدأ تطبيقا مطلقا فظلت الخدمة العسكرية مقصورة على المسلمين دون غيرهم، بينما دفع النصارى الجزية (البذل العسكري)، كما ظلت الوظائف العامة - وخاصة الإدارية والقضائية - محصورة في يد المسلمين^(٣).

وهكذا أدت التنظيمات إلى زعزعة نظام الملل دون أن تدمجها في كيان المجتمع إدماجا تاما، وكان لذلك أثره السيئ على الولايات العربية ولا سيما بلاد الشام حيث تكثر الأقليات المسيحية، فبينما اتجه المسلمون إلى السلطنة ظلت هذه الأقليات تتجه إلى الدول الأوروبية لحمايتها^(٤).

(١) عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٣٠؛ محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي، ص ٢١٨.

(٢) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٣٠-٣١.

(٣) الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة، ج ١، ص ٥٥.

(٤) الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق، ص ١٩١؛ جحا، شفيق، التنظيمات، مجلة الأبحاث.

ويلاحظ أيضا بأن هذه التنظيمات كان لها أثر على التراكيب الاجتماعية، فقد قضت على النظم الإقطاعية في البلاد العربية ممثلة في الإقطاع العسكري (الزعامات التيمارات والخاص)، ونظام الالتزام، وحل محلها الحكم المركزي، وكان طبيعيا أن يتبع ذلك إعادة تنظيم الولايات العربية على أساس المركزية، مما أدى فيما بعد إلى المطالبة بتطبيق اللامركزية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حركة الإصلاحات العثمانية لم تستمر بسبب التصادم بين أنصار الحكم المركزي ممثلين بجمعية الاتحاد والترقي وأنصار اللامركزية ممثلين بالأحزاب المعارضة للاتحاديين ومنها: الحزب الحر المعتدل الذي تأسس سنة ١٩٠٩م، وحزب الحرية والائتلاف الذي تأسس سنة ١٩١١م، والجمعيات العربية العلنية والسرية^(١).

هذا وقد دفعت سياسة محمد علي باشا في سورية الدولة العثمانية إلى إرساء عدد من المبادئ في حكم سورية تقوم على إشراك الأهالي في المسؤولية، كما أوجدت قانونا مدنيا إلى جانب القضاء الشرعي، وسار الاثنان جنبا إلى جنب فيما عرف بالتنظيمات العثمانية^(٢).

ثورة سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤٠م:

بدأت فتنة بين الدروز والنصارى خاصة في لبنان، وفي سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٣م أرسلت الحكومة في لبنان رجلا لجباية الأوال الأميرية من جبل النصيرية ومطاردة بعض الأشقياء، فقام هذا الرجل بتعذيب رجلين هناك وأرسلهما مقيدتين إلى اللاذقية، ولما وصل الخبر إلى أهل الجبل تجمع نحو خمسمائة رجل واتجهوا إلى اللاذقية، وهاجموا السجن وأخذوا السجنيين^(٣).

وفي سنة ١٢٦١هـ / ١٨٤٤م قام الدروز في لبنان وقتلوا النصارى، وفي سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٥م أرسل والي دمشق إلى دروز حاصبيا يحثهم على قتل النصارى، وأرسل إلى دروز حوران ليقدموا المساعدة لهم، ولكن النصارى في حاصبيا علموا بالأمر فهربوا قبل

(١) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٤٩-٥٠.

(٢) غرايبة، سورية، ص ٥٩.

(٣) كرد علي، الخطط، ج ٣، ص ٧٥.

الإيقاع بهم، إلا أن الدروز هاجموا راشيا وفتكوا بمعظمهم، وتشتت الآخرون^(١). وقد فشلت هذه الثورة بسبب حدوث انشقاق وقع بين قيادتها^(٢).

وتعتبر هذه الثورة أوسع مدى وتركيبا من الناحية الاجتماعية مما سبقها من الحركات الأخرى، حيث اشترك في قيادتها عناصر برجوازية وأخرى إقطاعية، وأعلن الفلاحون التمرد وعدم دفع الضرائب، وطالبوا بالمساواة بين جميع السكان، وحل المشكلة الزراعية عن طريق توزيع أراضي الإقطاع على الفلاحين^(٣).

حادثة سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م ونتائجها:

كانت حادثة عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م من أهم الأحداث التي أثرت على سورية، فقد كانت لها نتائج مختلفة سيتم التعرض لها لاحقا. وهذه الحادثة تعرف عند العامة بحركة الستين أو مذابح الستين، وقد وقعت بين الدروز والموارنة في لبنان وامتدت إلى دمشق^(٤).

وتعود جذور هذه الحادثة إلى سياسة محمد علي باشا في الشام، فعلاقته بالدروز لم تكن مريحة، وإنما كانت شديدة التوتر بسبب محاربة النصاري على حساب الدروز. ويمكن القول أن الشرارة الأولى لهذه الحادثة انطلقت عام ١٨٣٥م عندما ثار الدروز ضد إبراهيم باشا، حيث استعان إبراهيم باشا بالأمير بشير الشهابي. فقد أمدّه بقوات من جبل لبنان جميعهم من النصاري، ومنذئذ استحكم العداء بين الطرفين^(٥).

وفي سنة ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م هاجم جماعة من الدروز قرية بيت مري في لبنان وأحرقوا ثلاث قرى مسيحية وقتل رجالها وحرق المساكن. وامتدت هذه الحوادث إلى دير القمر ثم انتشرت إلى باقي أطراف الشام، وامتدت إلى دمشق حيث اجتمع دروز وادي اليتيم وإقليم

(١) كرد علي، الخطوط، ج ٣، ص ٧٦.

(٢) عيساوي، التاريخ الاقتصادي، ص ١٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢.

(٤) حتى، فيليب، تاريخ لبنان، ص ٥٣٠.

(٥) الزواهرة، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق، ص ١٧٧.

البلان على النصارى وقَاتلوهم ونزعوا منهم السلاح، وأخذوا يحرقون مساكنهم ، ويهدمون كنائسهم وأديرتهم^(١).

ومما أدى إلى اشتعال الأمور بين المسلمين والنصارى في دمشق هو إصدار السلطان أمراً يقضي بالمساواة بين المسلمين والنصارى حتى أصبحوا يفوقونهم في الجاه والثراء^(٢)، مما أدى إلى اشتداد التوتر الطائفي بينهم وبين المسلمين.

وكانت أولى نتائج حادثة سنة ١٨٦٠م خروج الزعامات السياسية في دمشق منها، وبروز صفوة سياسية واجتماعية جديدة فيها، حيث أصبحت القوة السياسية بين عامي ١٨٦٠-١٩٠٨م في أيدي الوجهاء من غير رجال الدين أكثر من قبل، وأصبحت منزلة بعض العائلات الجديدة المالكة للأراضي تضاهي منزلة أي من كبار رجال الدين في السلم الاجتماعي^(٣).

وكان المسلمون من علماء دين ومشايخ هم الذين يحتكرون النظام التربوي التعليمي قبل حادثة عام ١٨٦٠م، وبعدها أخذت المدارس التبشيرية المسيحية تؤثر تأثيراً قوياً على دمشق، وكانت هذه المدارس تقوم بصورة أساسية بتعليم أبناء الأقليات الدينية في المدينة، ولكن مع الزمن دخل إليها بعض أبناء كبار العائلات الإسلامية. ولم يعد لمناصب الأحناف ونقيسب الأشراف الوزن السياسي نفسه بعد الحادثة، وأصبحت المقاعد في المجالس الإدارية للولاية ذات نفوذ أكبر من نفوذ ذوي المناصب الدينية العليا على القوى المحلية^(٤).

وكان من نتائج حادثة عام ١٨٦٠م أيضاً أن ازداد تدخل الدول الأوروبية في شؤون سورية ولبنان، وقاد ذلك الدولة العثمانية إلى التفكير بشؤون المنطقة، وأخذت ترسل ولاة تنوّم فيهم العمل على تحسين أحوال الناس، ومن الأمثلة على ذلك إرسالها مدحت باشا إلى ولاية سورية، حيث تولى أمور دمشق سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م، وكان معروفاً بتوجهاته الإصلاحية.

(١) كرد علي، الخطط، ج ٣، ص ٨٩-٩٠.

(٢) سمير الحاج، حسر اللثام، ص ٢٢٣.

(٣) خوري، فيليب شكري، طبيعة السلطة السياسية في دمشق بين عامي (١٨٦٠-١٩٠٨م)، المؤتمر الدولي الثاني لبلاد الشام، ج ١، ص ٤٥٣، ٤٥٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٥٧-٤٥٨.

الأوضاع السياسية والثقافية:

تفاعلت خلال القرن التاسع عشر ثلاث حركات تاريخية رئيسية هي: حركة اليقظة العربية الناشئة، وحركة الرأسمالية الأوروبية، وحركة إصلاح شؤون الدولة العثمانية.

وقد قامت حركة اليقظة العربية لمواجهة التخلف والاستبداد والتسلط وغير ذلك من ممارسات ظالمة عانت منها الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وكانت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية من أبرز ما يمثل حركة اليقظة، وهي حركة دينية تستند إلى الوحدانية وتنقية العقيدة الإسلامية من الشوائب، وكانت في الوقت نفسه ذات مضمون سياسي^(١).

أما الرأسمالية الأوروبية فكانت حركة استعمارية تبحث عن المواد الخام والأسواق خارج بلادها لتستغل الثروات الطبيعية والبشرية، وتضمن إدامة تزويدها بهذه الثروات عن طريق الاحتلال العسكري. ونجم عنها الاستعمار الذي حمل معه بعض مظاهر التقدم الأوروبي في العلوم والفنون، ومن ذلك ما حدث أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨م. فقد كان الاستعمار عاملاً من عوامل إذكاء اليقظة وإحياء الروح القومية بين الشعوب المستعمرة، وتمثل أثره الأعمق فيما خلقه من تناقضات دفعت بهذه الشعوب إلى مقاومة الاستعمار بجميع أشكاله، ودفعتها إلى التسلح ببعض أسلحة الغرب، وكان التنظيم الحزبي في مقدمتها^(٢).

لقد تغلغلت الآراء الغربية وبخاصة آراء الثورة الفرنسية المتعلقة بمفاهيم الحرية والإخاء والمساواة في البلاد العثمانية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وذلك عن طريق البعثات التعليمية والمدارس التبشيرية والعسكرية^(٣).

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسية بدأت تظهر بوادر الوعي والعمل من أجل الإصلاح، وهبت رياح التغيير على أنحاء الوطن العربي، وكثرت المدارس وانتشرت المطابع والصحف وتطور التعليم بعد عودة طلاب البعثات العلمية من أوروبا، وبعد تخرج طلاب مدارس

(١) الريماوي، سهيلة، الجمعية العربية الفتاة، ص ٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١-٣٢.

(٣) الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٤٢.

الإرساليات الأجنبية التي افتتحت في البلاد، وساهم ذلك كله في نقل الأفكار التحررية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر إلى البلاد العثمانية، فولدت تيارات علمية وسياسية جديدة تبلورت بشكل واضح في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأدت إلى ظهور صيغ تنظيمية كانت في بادئ الأمر جمعيات علمية أو ثقافية ثم تطورت إلى حلقات علمية ذات مضمون سياسي، ظهرت بعدها الجمعيات السياسية، وذلك مع مطلع القرن العشرين^(١).

وقد ساهم في ظهور هذا الوعي الذي تطور إلى جمعيات وأحزاب سياسية عدد من المفكرين الرواد الذين برزوا في القرن التاسع عشر، فقد أيقظوا الشعور القومي، وشكلوا فكر النهضة. وكان من أشهرهم في بلاد الشام: عبد الرحمن الكواكبي، ورشيد رضا، ومحب الدين الخطيب^(٢).

أما الجمعيات والأحزاب السياسية التي ظهرت فمن أبرزها جمعية (القحطانية) التي تأسست في استنبول في أواخر عام ١٩٠٩م، وكان هدفها إعادة تنظيم الدولة العثمانية على أساس اتحادي بين العرب والأتراك. و(جمعية العربية الفتاة) التي تأسست في باريس في عام ١٩١١م، وكان لها تأثير كبير في مجرى السياسة العربية، وقد ضمت عدداً من الضباط العرب الذين قُدر لبعضهم أن يصبحوا فيما بعد زعماء بارزين مثل نوري السعيد، وجميل المدفعي، ومولود مخلص^(٣).

وفي المجال الثقافي لم تحظ ولاية سورية باهتمام كبير من الدولة العثمانية، ولكنها انفردت عن غيرها من الولايات العربية بنشاط تعليمي ثقافي كبير على يد المؤسسات التبشيرية المسيحية، وكان لذلك أثر كبير في ظهور الاتجاهات العربية القومية في بلاد الشام.

لقد كان التعليم عند العثمانيين حتى عهد الإصلاحات التربوية سنة ١٨٦٤م دينياً في غالبيته، يشرف عليه العلماء أو رجال الدين^(٤). وعندما بدأ القرن التاسع عشر كان في سورية

(١) الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٨٥٠-١٩١٨م)، مجلة دراسات تاريخية، ٧٤، كانون الثاني، ١٩٨٢، ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) الريماوي، الاتجاهات الفكرية للثورة العربية الكبرى، ص ١٦.

(٣) موسى، سليمان، من تاريخنا الحديث، ص ١٤.

(٤) سراج الدين، أحمد، الحركة التربوية وتطورها في سورية ولبنان خلال القرن التاسع عشر، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، العدد ٤، ١٩٤٨، ص ٣٢٢.

عدد من المؤسسات الثقافية من مدارس ومكتبات تمت إدارتها بمعزل عن السلطات الرسمية وعن أي إدارة مركزية. فقد تولى إدارة هذه المؤسسات إما أصحابها بصفته الشخصية، وإما الطوائف التي تنتمي إليها هذه المؤسسات^(١).

وشملت الإصلاحات التي قامت بها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر الناحية التعليمية، فبعد عودة العثمانيين إلى بلاد الشام سنة ١٨٤٠م، اتخذت الدولة خطوات لتحسين التعليم، فأصدرت سنة ١٨٤٦م قانون إصلاح التعليم الذي أعطى الدولة حق الإشراف على مختلف المراحل التعليمية في المدارس، ونص القانون على مجانية التعليم وحق تعيين معلمين من غير رجال الدين وقسم التعليم بموجبه إلى ثلاث مراحل هي: الابتدائية والرشدية والعالية^(٢).

وشكلت الحكومة العثمانية في أعقاب صدور خط شريف كلخانة سنة ١٨٤٥م لجنة سبائية لدراسة حالة المدارس وتقديم التوصيات اللازمة لتنظيم التعليم ونشره ورفع مستواه، وقد قدمت اللجنة تقريرها سنة ١٨٤٦م وضمنته منهاجاً طويلاً مفصلاً يتناول مراحل التعليم الثلاث، واقترحت تشكيل ديوان للمعارف العمومية ليشرّف على شؤون التعليم، وعلى إثر ذلك زيد عدد المدارس الابتدائية، وأنشئت بعض المدارس الثانوية الرشدية، وبعد سنة ١٨٤٧م تحول ديوان المعارف العمومية إلى نظارة (وزارة)^(٣).

وعندما تولى مدحت باشا أمور الولاية سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م، حاول إصلاح التعليم، وقال: ((قد عولت على إصلاح ولاية سورية لأن حب الإصلاح قد اختلط بدمي، وأول ما وقع عليه نظري في تلك الولاية هو أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل ما عدا العلماء، والسبب في ذلك سياسة الدول الأجنبية في مصر والشام، لأن تلك الدول تفتح المدارس بأموالها وتمدها بقواتها فيتعلم بها أبناء المسلمين، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن، فكنت أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسها، فقدمت إصلاح المدارس على كل إصلاح، وشكلت جمعية من العلماء، وقمت بجمع الإعانات من ذوي المروءة فأصلحت بعض الجوامع وجعلتها مدارس للأحداث وأطلق على هذه الجمعية اسم جمعية المقاصد الخيرية، وانتشرت شعبها في أنحاء الولاية))^(٤).

(١) غرايبة، سورية، ص ١٦٢.

(٢) سراج الدين، الحركة التربوية، ص ٣٢٢.

(٣) جها، التنظيمات العثمانية، مجلة الأبحاث، ص ١٠٩-١١٠.

(٤) مدحت باشا، مذكرات مدحت باشا، ص ٣٦-٣٧.

لقد شكلت جمعية المقاصد الخيرية بأمر من مدحت باشا وتشجيع من الشيخ طاهر الجزائري، وعملت على تحويل بعض الجوامع والتكايا الموقوفة إلى مدارس، وافتتحت المدرسة الأولى سنة ١٨٧٩م في مبنى جامع السياغوشية وانضم إليها مائة وستة عشر تلميذا. واهتمت الجمعية أيضا بتعليم البنات، إذ افتتحت مدرستين لتعليمهن، هما: مدرسة السليمانية، ومدرسة المغيربية^(١).

وعندما استبدل بجمعية المقاصد الخيرية مجلس المعارف سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م عين أول رئيس له الشريف محمد أفندي حمزة مفتي دمشق، وعين له نائبان هما: علاء الدين أفندي، ومفتش المعارف الشيخ طاهر الجزائري، وساعدهم خمسة عشر عضوا. وكان للشيخ طاهر الجزائري الأثر الكبير في إنشاء الجمعية، فقد وجد أن مدارس الإرساليات التبشيرية تقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها بينما لا تفعل المدارس العثمانية ذلك، وإذا لم تقوم الحكومة بذلك فلن جيلا جديدا سينشأ، ولكن بتفكير ومذاهب سياسية لا تسر الدولة. وقد أقنع الجزائري مدحت باشا بفكرته هذه فأمر بإنشاء الجمعية. وكان للشيخ طاهر الجزائري الأثر الكبير في نشاط الحركة الثقافية من خلال حلقاته المشهورة في دمشق حيث كان ينضم إليها المتعلمون والمفكرون العرب^(٢).

وكان للإرساليات التبشيرية نشاطها في إنشاء المدارس في بلاد الشام، وتعتبر مدرسة عينطورة من أقدم مدارسها، فقد أنشئت سنة ١٧٢٨م وأغلقت ثم أعيد فتحها سنة ١٨٣٤م. وبالرغم من سلبات المدارس التبشيرية إلا أن لها بعض الإيجابيات، فقد اهتمت إلى حد ما باللغة العربية، ونشر مخطوطاتها. واستعان المبشرون بالكتاب العرب لترجموا لهم الكتب إلى اللغة العربية أو ليضعوا لهم بعض الكتب في قواعد اللغة العربية كناصر اليازجي^(٣).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإرساليات التبشيرية القادمة إلى المنطقة أصبحت أكثر كثافة بعد حادثة ١٨٦٠م، وأصبحت العائلات الإسلامية الكبيرة ترسل أبناءها إلى المدارس التي أقامت تلك الإرساليات^(٤).

(١) يزبك، يوسف، جمعية المقاصد الخيرية، مجلة أوراق لبنانية، ج ١، ١٩٥٥م، ص ١٥٤.

(٢) الشهابي، مصطفى، محاضرات عن القومية العربية، ص ٤٩-٥٠؛ وانظر أيضا: بزوء، توفيق، العرب والترك، ص ١٧؛ محافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ص ١٣٤.

(٣) شريف، محمد بديع وآخرون، دراسات في تاريخ النهضة العربية، ص ١٠٥، ١٦٤.

(٤) الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق، ص ١٤٩؛ Philip K, Syria, p 218.

وعلى الرغم من نشاطات الإرساليات التبشيرية والدولة العثمانية في مجال التعليم إلا أن الوضع التعليمي في الولاية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان على درجة من الضعف والإهمال من حيث عدد المدارس، وعدم التوازن بين المدن والقرى، وتختلف أساليب التدريس فيها. وهذا الضعف والإهمال دفع بعض المفكرين والمصلحين إلى التركيز على التعليم وضرورة تطويره، وأخذوا ينبهون الناس إلى أهميته. وقد ساهم هؤلاء في الحركة الأدبية والفكرية مساهمة فعالة، ومنهم ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١م) الذي اهتم بإحياء التراث، وألف عددا من الكتب في النحو والمنطق والبلاغة، وألقى الدروس المجانية في مدارس بيروت، وحث طلبته على العودة إلى التراث العربي المشترك ونبذ فكرة الطائفية^(١).

واشتهر أيضا بطرس البستاني الذي دعا إلى حب الوطن، والوطن عنده سورية، وقد أصدر صحيفة (نفيير سورية) سنة ١٨٦٠م واتخذها منبرا للمناداة بضرورة الوفاق بين الطوائف، والعدول عن الضغائن، مذكرا أبناء الوطن بأنهم يجمعهم وطن واحد ولغة واحدة ومصالح مشتركة. كما دعا للتتوير عن طريق افتتاح المدارس والمكتبات. وقد أكد هذه المفاهيم في مجلته (الجنان) التي أصدرها سنة ١٨٧٠م جاعلا شعارها (حب الوطن من الإيمان)، وهدف إلى نشر المعرفة عن طريقها^(٢).

ونجم عن هذه النهضة الفكرية الثقافية إيقاظ الشعور القومي العربي، وانتشار الطباعة التي أصبحت وسيلة من وسائل نشر الوعي بما أصدرته من صحف ومجلات ونشرات، إلا أن تأثيرها كان محدودا بسبب الرقابة الصارمة التي كانت الدولة العثمانية تفرضها على الكتب المطبوعة.

لقد أنشئت في دمشق أربع مطابع هي: مطبعة الولاية، ومطبعة الحجر، ومطبعة مجلس المعارف، ومطبعة حبيب خالد، إضافة إلى عدد من المطابع الصغيرة في بعض مدن الولاية. وقد ساهمت إصدارات هذه المطابع في صنع الوعي السياسي في بلاد الشام^(٣).

(١) أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، ص ١١.

(٢) النصولي، أنيس، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص ١٤٥؛ الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٤٧.

(٣) النصولي، المرجع السابق، ص ١٣٥؛ الريماوي، الجمعية العربية الفتاة، ص ٤٠.

وظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر صحف رسمية، ثم ظهرت الصحف التي يملكها الأفراد، وكان من أوائل ما ظهر منها صحيفة (حديقة الأخبار اليومية) في بيروت سنة ١٨٥٨م، وصحيفة (سورية) اليومية سنة ١٨٦٥م في دمشق. وكانت الصحافة في سورية تخضع لرقابة المكتوبجي (مراقب المطبوعات)، فقد لاقت الصحافة ضغوطاً عثمانية تمثلت في اضطهاد الصحفيين وملاحقتهم ومصادرة صحفهم، ومع ذلك تمكنت هذه الصحف من نشر بذور الوحدة خصوصاً في عهد مدحت باشا الذي كان يؤيد الدعوة إلى إقامة حكم على أساس الشورى^(١).

وكان الكواكبي من أوائل الصحفيين الذين مارسوا العمل الصحفي داخل سورية، وكان رئيساً لتحرير جريدة (غدير الفرات) سنة ١٨٦٧م، ثم أنشأ جريدة (الاعتدال)، وقد تعرض بسبب الأفكار التي نشرها إلى الاضطهاد والملاحقة من قبل السلطات، مما اضطره للهجرة إلى مصر^(٢).

وعلى الرغم من الرقابة الصارمة التي مارستها الدولة العثمانية على الصحف إلا أن أثرها كان قوياً في تشكيل الرأي العام الواعي، ونشر الفكر السياسي، مما مهد لنشوء الجمعيات السياسية والأحزاب التي أخذت تطالب بحقوق العرب في ظل الدولة العثمانية مما عرضها لمقاومة عنيفة من قبل السلطات، واضطر كثيرون من زعمائها ومنتسبيها للفرار إلى دول عربية وأجنبية. لقد كان الهدف الظاهر لهذه الجمعيات هو نشر العلوم وتنشيط الفنون، ثم تحولت إلى أحزاب وجمعيات سياسية تطالب بإصلاح الأوضاع والاستقلال الذاتي^(٣).

ومن هذه الجمعيات (الجمعية العلمية السورية) التي أسسها بطرس البستاني وفان ديك الأمريكي في بيروت عام ١٨٤٧م، وكان هدفها ترقية العلوم ونشر الفنون^(٤). واستعادت نشاطها عام ١٨٥٢م واستمرت إلى سنة ١٨٦٨ وضمت أعضاء من مختلف الطوائف، وعملت على نشر العلوم والفنون دون التعرض للأمور الدينية والسياسية^(٥).

(١) الزيمائي، الجمعية العربية الفتاة، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١.

(٣) صليبيا، جميل، محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب العربي، ص ٤٣-٤٤.

(٤) النصولي، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص ١٦٧.

(٥) الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٥٠.

وكان من أشهر الجمعيات الطائفية: الجمعية الإنجيلية التي تأسست سنة ١٨٦٠م، هذا إضافة إلى جمعية المقاصد الخيرية التي انضمت إلى مجلس المعارف^(١).

أما المفكرون والأدباء الذين كان لهم حضور قوي في القرن التاسع عشر فقد كان لهم دور كبير في تحريك الوعي القومي وإنهضه، فقد ثار الكواكبي على الأوضاع السائدة في الدولة العثمانية واختار الصحافة طريقاً لنشر أفكاره، وركز على مقاومة الاستبداد والقضاء عليه حتى يتحقق الإصلاح. ووجه دعوته للعرب بصفة خاصة وللمسلمين والشرق عامة في أن يعملوا على إيجاد حل جماعي منظم يقضي على أسباب الفتن. ومن هنا تخيل انعقاد جمعية شاملة للمسلمين في كتابه أم القرى، منطلقاً من تأكيد القيم الدينية بالتركيز على القومية العربية، وهو مع أنه لم يكن عضواً في أي تنظيم جماعي، إلا أنه دعا إلى العمل الجماعي. وقد أثرت أفكاره تأثيراً كبيراً، وتأثيرها ظهرت الجمعيات السياسية وخاصة جمعية العربية الفتاة^(٢).

أما رشيد رضا فقد دعا إلى تعميم اللغة العربية في الدولة العثمانية، وطالب الخليفة العثماني بأن يكون البادئ بتوحيد لغة الدولة (العربية) وطالب بالاستقلال مفرقاً بين الاستقلال السياسي والاستقلال الجنسي، فالاستقلال السياسي في رأيه هو أن تحكم الأمة نفسها بنفسها، أما الاستقلال الجنسي فهو أن تحافظ الأمة على لغتها وكيانها. ودعا الأمة العربية إلى أن تقوي نفسها، وتجمع كلمتها وتحفظ وحدتها، وجعل من واجب المسلمين مساعدتها على ذلك^(٣).

ويمكن القول باختصار أن الأوضاع الثقافية والحزبية، وما أدت إليه من تطور كبير في الوعي القومي تمخضت في النهاية عن مطالبة الدولة العثمانية بأن تعترف بحياة العرب الوطنية، وأن تطبق الإصلاحات والإدارة اللامركزية، وأن تجعل من اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية وفي (مجلس المبعوثان). وقد استجابت الدولة لهذه المطالب، ووعدت بتنفيذها، إلا أنها سرعان ما نكصت وماطلت وسوّقت، وعلقت بعض المطالبين بالإصلاح على أعواد المشانق، وطردت الضباط العرب من استنبول، وأسندت القيادات العسكرية في الولايات العربية إلى ضباط أترك، وذلك في سنة ١٩١٤م قبيل الحرب العالمية الأولى^(٤).

(١) النصولي، المرجع السابق، ص ١٦٩؛ وانظر أيضاً: الريماوي، الجمعية العربية الفتاة، ص ٤٤.

(٢) الريماوي، الجمعية العربية الفتاة، ص ٤٦-٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٥١-٥٢، ٥٤.

(٤) موسى، من تاريخنا الحديث، ص ١٥-١٦.

وهكذا فقد أحرزت حركة القومية العربية بشكل عام، وفي ولاية سورية بشكل خاص تقدماً ملموساً في مجال التكتل وبلورة مطالب العرب عن طريق الأحزاب والجمعيات السياسية، غير أنها اصطدمت بعنت جمعية الاتحاد والترقي، التي سيطر أعضاؤها في أواخر عهد الدولة العثمانية سيطرة تامة على مقدرات تلك الدولة^(١).

(١) موسى، من تاريخنا الحديث، ص ١٧.

الأوضاع الاقتصادية:

تمتعت سورية في العهد العثماني الأول بانتعاش اقتصادي كبير، فقد أصبحت مركزاً لتجارة الترانزيت بين الشرق والغرب، ونشطت تجارتها الداخلية، ولكن خلال القرن التاسع عشر طرأت على الولاية تغييرات جذرية، فقد برزت دمشق كمنافس قوي لحلب، وانتزعت منها الزعامة التجارية والصناعية. وأدى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م إلى تحويل ما تبقى من تجارة الترانزيت عن سورية، ولم يعد للقمح والقطن السوريين أي أهمية في التجارة العالمية بعد أن برزت استراليا وكندا كمنتجين لهذه الأنواع بكميات أفضل وأرخص^(١).

ورغم ذلك بقيت في سورية حركة تجارية نشطة، فارتفعت وارداتها عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م لأكثر من عشرين مليون ليرة عثمانية، وتضاعفت عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م. وقد شكلت الأقمشة أكثر من ٦٠% من وارداتها تلاها في الأهمية السكر والقهوة. أما أكثر صادراتها فكانت من الصوف^(٢).

وكان لموقع الولاية على طريق الحج الشامي أهمية كبرى في اقتصادها وبخاصة مدينة دمشق، فالحجاج القادمون من الشمال كانوا يجتمعون فيها^(٣)، وكان كثيرون منهم يصلون قبل موعد الخروج للحج بعدة أشهر ويحملون معهم كثيراً من منتجات بلادهم لبيعوها في دمشق ويستعينوا بثمنها على نفقات الحج، وكان ذلك يؤدي إلى امتلاء الأسواق بالدواب والإبل، مما نشط بناء الخانات والمتاجر، وأدى إلى رواج التجارة^(٤).

لقد قدرت نفقات الحجاج في دمشق بنصف مليون ليرة عثمانية سنوياً، وكان كثير من أهالي دمشق يعيشون من البيع للحجاج أو من إنزال البعض في بيوتهم^(٥).

أما الصناعات فقد انحصرت بطوائف معينة، فكان أكثر الصاغة من المسيحيين وخاصة الأرمن، وظلت صناعة النسيج أهم صناعات سورية. كما اشتهرت بشكل خاص بصناعة

(١) غرايبة، سورية، ١٤٠-١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٣) خير، صفوح، مدينة دمشق، ص ١٨٠.

(٤) عزت، أحمد، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ١١٧.

(٥) غرايبة، سورية، ٢١٤٢.

الصابون. وقد انتظم أصحاب الحرف في نقابات مختلفة منظمة، فكان لكل حرفة تنظيمها وإدارتها. وتعتبر صناعة النسيج من أهم الصناعات السورية، إذ وجد في دمشق لوحدها حوالي (٥٢٥٠) نول نسيج يعمل فيها ١٦٠٠٠ عامل في أواخر القرن التاسع عشر^(١)، وفي حمص وجد ٤٠٠٠ نول يعمل بها حوالي ١٢ ألف عامل، وفي حماه هناك حوالي ٤٠٠ نول يعمل بها حوالي ٣ آلاف شخص^(٢).

وفرضت الدولة على أهل المدن ضرائب على العقارات تسمى (ترايبية)، وضرائب أخرى على الأشخاص الكاسيين تسمى (تمتع)، أو (ويركو)، وكان مقدار الضرائب يختلف باختلاف القيمة أو الشخص، وكانت تأخذ من المزارعين عشر حاصلاتهم، وتلزم الأعشار لملتزمين من الأهالي بمقدار معين من المال يدفعونه عن كل قرية. وكان هذا الالتزام يجري بالمزايدة، ويفوض لمن يدفع مبلغاً أكبر. أما القرى التي لا يمكن تلزيمها لسبب ما فتخمنن أعشارها وتخبي بواسطة جباة الدولة. وكانت هذه الطرق تؤدي إلى الظلم والقسوة اللذين يكون الأهالي ضحيتهما^(٣).

وقد عانت سورية من فوضى كبيرة في مجال النقود والموازين والمكايل، فقد راجت فيها كل أنواع النقود الفضية والذهبية الأوروبية والعثمانية، وتعرضت هذه العملات للخسارة بسبب فقدانها نسبة معينة من وزنها بالاستعمال^(٤).

وتمتع الدول الأجنبية بامتيازات خاصة لدى الدولة العثمانية منذ القرن الخامس عشر، وأدت هذه الامتيازات إلى الصراع بين تلك الدول ذاتها، كما أدت إلى تدخل الدول الأجنبية في شؤون الدولة، ثم أخذت تتنافس لاقتسام ممتلكاتها^(٥).

وتحملت الدولة العثمانية بسبب سياستها وفشلها في الإدارة ديوناً طائلة تراكمت عبر السنين، وقد اتفقت مع الدول الدائنة ورعاياها الدائنين على توحيدها باسم (الديون العمومية)،

(١) غرايبة، سورية، ص ١٤٧، ١٥٠.

(٢) عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب، ص ١٢٢.

(٣) دروزة، محمد عزت، نشأة الحركة العربية، ص ٢٠٤.

(٤) غرايبة، سورية، ص ١٦٠.

(٥) الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق، ص ١٨٠-١٨١؛

- Philip K. Hitti, History of Syria, p218,668; Syria, A Country Study, p19.

وقررت تخصيص بعض مواردها لسدادها، وإنشاء دائرة مستقلة يشترك في إدارتها ممثلون للدول الدانئة. ومنحت الشركات الأجنبية احتكار صنع وبيع الدخان والتبأك، وحق الإشراف على زراعة الدخان ومكافحة التهريب^(١). وهذا الوضع بمجمله يدل على أن الأوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية بشكل عام، وفي ولاية سورية بشكل خاص كانت بالغة السوء، وهو أمر كان له انعكاساته على الحياة الاجتماعية.

(١) بروزة، نشأة الحركة العربية، ص ٢٠٥.

الفصل الثاني

الطبقات الاجتماعية في ولاية سورية

١. الحكام والولاة.
٢. العلماء وأتباع الطرق الصوفية.
٣. الحرفيون والصناع.
٤. طبقة العبيد.

الطبقات الاجتماعية في ولاية سورية

تكوّن المجتمع في ولاية سورية - خلال فترة الدراسة - من فئات عديدة شكلت طبقات ذلك المجتمع: فهناك الحكام وعلى رأسهم السلطان والديوان السلطاني، وهناك الولاة وموظفونهم، ثم هناك العلماء وأتباع الطرق الصوفية، والحرفيون والصناع، وأخيراً العبيد.

وكان لكل طبقة من هذه الطبقات ميزاتها ومسؤولياتها وتأثيرها على المجتمع، الذي شكل أفرادها قاعدة الهرم الاجتماعي في الولاية. وللتعرف على هذه الطبقات لا بد من تناول تشكيلات كل منها، وغير ذلك من شؤون متعلقة بها.

الحكام والولاة:

يعتبر السلطان قمة الهرم الحاكم في الدولة العثمانية، والمرجع الأعلى في كل شأن من شؤون الدولة، ويأتي بعده الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، وشيخ الإسلام، ثم الباشا الذي يعتبر ممثلاً للسلطان في كل ولاية من ولايات الإمبراطورية.

والسلطان - بصفته رأس الدولة - لم يكن يتم تعيين وزير أو موظف كبير، مدنياً كان أم عسكرياً إلا بموافقته، ولم يكن يصدر قانون أو نظام، أو يبت في أمر رئيسي إلا إذا أراد ذلك، وبالتالي فإن التعيين أو القانون أو النظام أو غير ذلك من الأمور الجبلية إنما يستمد شرعيته من الإرادة السنّية التي غالباً ما يصدرها السلطان مكتوبة^(١).

وأما الباشا فهو الحاكم الذي يمثل السلطة العثمانية في مركز كل ولاية. وكانت رتبته في البداية بكربك أي بك البكوات*. وكانت له شارتان تعلقان على رايته. وقد حكم الباشوات الأتراك ولاية سورية، ولكن حكمهم المباشر لم يخضع له سوى القليل من المدن السورية وضواحيها، إذ بقيت البلاد، ولا سيما المناطق الجبلية، تحت حكم أمرائها وشيوخها. وكانوا

(١) دروزة، نشأة الحركة العربية، ص ١٨٩.

* بكربك: بك البكوات، أي أمير الأمراء، وهو لقب إداري وعسكري ورثه العثمانيون عن الدولة السلجوقية.

يتوارثون هذا الحكم، وكثيراً ما كانت تقع بينهم الحروب دونما استئذان من الباشوات أو انتظار لموافقتهم^(١).

وكان الباشا يتعهد للباب العالي بأن يدفع له مبلغاً من المال كان بمثابة إتاوة مفروضة تدعى (الباشالق). وكان الباشا مقابل ذلك يقوم بتحصيل الأموال من الولاية، وينفق منها على مقره وجيشه. وكان يفرض على كل ناحية من نواحي الولاية التابعة له مبلغاً يتفق ومواردها^(٢).

وأدى سوء الإدارة التي مارسها الباشوات وغيرهم في الولايات العربية إلى انتشار الرشوة، وسوء استغلال المناصب، والاستهانة بالسافة بالقوانين والأنظمة^(٣).

لقد شغل الإقطاعيون الكبار جميع المناصب المهمة في الجهاز الحكومي. ولم تكن الحكومة هي التي تدير البلاد بقدر ما كان يفعل ذلك البلاط السلطاني. وقد تمتع رؤساء بعض جماعات المتصوفة في البلاط بنفوذ كبير^(٤)، كما كان أنصار السلطان المحليون أعداداً لحاشية البلاط السلطاني ومساوين لرجالها في النفوذ، وفي العمل على تنفيذ سياسات السلطان. وخاصة في عهد السلطان عبد الحميد^(٥).

أما والي سورية فكان يمثل السلطان العثماني في دمشق، وقد اتخذ ألقاباً عديدة منها: الوالي أو الباشا أو الوزير، وكان يرأس السناجق التي تتكون منها الولاية. ويعين الوالي لمدة سنة واحدة، وبعدها إما أن يجدد له أو يعزل من منصبه ليحل محله وال جديد، وكان العزل يتم في الغالب بعد عودته من الحج كأمير للقافلة^(٦).

وعندما يتولى وال جديد تجري له الحسابات اللازمة لتسلم الولاية، ويقوم بالترددار بمهمة الحسابات. ويقوم الوالي الجديد بإرسال متسلم من قبله لإدارة شؤون الولاية ريثما يصل إلى دمشق. وإذا ما عزل الوالي ولم يعين بديل عنه كان ديوان الولاية يعين قائمقاماً ينوب عن

(١) بازيل، قسطنطين، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص ٤٢.

(٢) بازيل، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٣) كوتلوف، حركات التحرر، ص ٢٠٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢١٤.

(٦) نعييه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٢٠٥.

الوالي حتى يتم تعيينه أو التجديد له، وكان التجديد للوالي يأتي من استتبول بفرمان جديد يطلق عليه اسم (المقرر)^(١)!

لقد نص الدستور العثماني على أن نظارة أمور الولاية الملكية والمالية والضبطية والبوليسية وإجراءات الأحكام الحقوقية تحال إلى والٍ منصوب من طرف الحضرة السلطانية، وهو مكلف بتنفيذ جميع أوامر الدولة داخل حدود الولاية، ويتأسس الوالي مجلس الولاية المكون من النائب والدفتردار والمكتوبجي وأربعة أعضاء منتخبين للإشراف على تنفيذ القوانين والأنظمة والتعليمات التي تصدر من الباب العالي، والتفتيش على معاملات وتصرفات الموظفين في مركز الولاية، كما يعين مواعيد اجتماعات المجالس الإدارية في الألوية والنواحي، والتفتيش مرتين في السنة في أنحاء الولاية^(٢).

وكان والي الشام يحمل رتبة الوزارة ذات الأطواخ، ويلقب بالباشا، ويخاطب ((...الدستور الوقور المكرم، المشير المفخم، والليث الجسور المعظم، صاحب الرتبة العثمانية دولتو...))، أو ((سعادة أفندينا الدستور الوقور المكرم، والليث الجسور والمشير المفخم، محرر أحكام السيف والقلم، أحد وكلاء السلطنة الشاهانية الحايذ والحامل للرتبة الأولى من نياشين المجيدين دولتو عطوفتو... مشير إيالة الشام حالا أدام الله إجلاله...))^(٣). وإيضاً: ((الدستور المكرم والمشير المفخم نظام العالم مدير أمور الجمهور بالفكر الثابت والرأي الصائب...))^(٤)، أو ((دولتو أفندي حضر تكري...))^(٥)، أو بامر ((الأمرء الكرام، عمدة الكبراء الفخام، ذو القدر والاحترام... دام إقباله...))^(٦)، أو ((نظام العالم، مدير أمور الجمهور...))^(٧).

وكانت رتبة حاكم الولاية دون رتبة الوزراء بدرجة واحدة، وقد منح الوالي طوخين بينما أعطي الأمير طوخاً واحداً. وكثيراً ما أسندت ولايتاً دمشق وحلب إلى ولاية يحملون رتبة الوزارة أو الصدارة فحافظوا في مركزهم الجديد على حقهم بالأطواخ، وسار أمام الوالي في

(١) نعيمه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) المدني، زياد، التنظيمات العثمانية، ص ١٧.

(٣) سجل رقم ٥٥٠ سنة ١٢٧٩هـ، ص ٧٦، والسجل رقم ٤٧١، سنة ١٢٧٢هـ، ص ٢٨٥.

(٤) غرايبة، سورية، ص ٦٠.

(٥) سالنامه ولاية سورية، سنة ١٢٨٩هـ، ص ٣١-٣٢.

(٦) غرايبة، مرجع سابق، ص ٤١.

(٧) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٨٦.

* الطوخ: ذنب حصان أبيض معقود على صعدته تعلوها كرة من نحاس وذهب استعمله التتار والعثمانيون شعاراً للسلطة بحيث حددت رتبة الأمير بعدد أطواخه.

مواكبه الرسمية ثلاثة خيول وشاطران مقابل كل طوخ من أطواخ رتبته. وأعطى الحاكم إقطاعاً من درجة خاصة (ساليانة) أو راتباً سنوياً لسد حاجاته ونفقات حاشيته وجنده. واختلف هذا الراتب أو الإقطاع من مكان لآخر وحسب الرتبة التي يحملها الحاكم، وتراوح إيرادات إقطاع الوالي في بر الشام بين ثمانمائة ألف ومليون قطعة فضية، وانخفض إيرادات أمير اللواء إلى أقل من نصف ذلك^(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ولاية سورية فقدوا منصبا مهما ورفيعا وهو إمارة الحج الشامي. وذلك بتعيين موظف خاص لهذا المنصب^(٢). وقد جرت العادة أن يرسل ولاية سورية تقريراً مفصلاً عن أحوال الولاية، يتضمن التدخل الأجنبي فيها، وكان الوالي يبذل الجهد المتواصل والسهر على المصالح، مما حمل بعض المأمورين ممن تعودوا التواني والإهمال على التذمر^(٣).

ومنح الوالي صلاحيات واسعة في المجالات الاقتصادية والتعليمية والأمنية منها: الإشراف على تحصيل واردات الولاية، ومراقبة تصرفات مأموري التحصيل، والعمل على تنشيط الزراعة والصناعة والتجارة ضمن الولاية، وهناك واجبات أخرى للوالي منها: المحافظة على الصحة العامة، والعمل على رفع مستوى التربية والتعليم، واستقرار الأمن في الولاية، وإعلام الباب العالي عن أي فوضى تحدث فيها. كما منح صلاحيات تتعلق بتنفيذ الأحكام التي تصدرها محاكم الولاية^(٤).

واعتبر الوالي رئيساً للسلطة في الولاية مسؤولاً عن ضمان استقرار ولائها للسلطات، وتأمين العدل والأمن للموظفين. ومارس الوالي صلاحيات إدارية وعسكرية وقضائية، وأشرف بصورة مطلقة على الشؤون الإدارية والإقطاعية، وعهد إليه بالإدارة العليا لشؤون الولاية والإدارتين المالية والسياسية وشؤون الأمن، وتنفيذ أحكام العقوبات الصادرة عن السلطة القضائية، وتنفيذ القوانين العامة المطبقة في جميع الإمبراطورية، وكان عليه أن ينفذ - في حدود السلطات الممنوحة له - القوانين التي تخضع إدارة الولاية لها، وكثيراً ما تضاربت صلاحياته

(١) غرايبة، سورية، ص ٤١؛ نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٢١١.

(٢) سالنامه ولاية سورية، سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م، ص ١٩٩.

(٣) العصر الجديد، العدد ٩٦، ص ٩.

(٤) المدني، التنظيمات العثمانية، ص ١٧؛ الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق، ص ٤٣.

مع القضاء، فأمر بفرض عقوبات تصل إلى الإعدام من دون محاكمة ومن غير إثبات ولا دعوى. وتدخل في تحديد الأسعار، وتأمين المواد الغذائية، ومراقبة النقد^(١).

والتحق بالوالي عدد من الموظفين الذين ارتبطوا به، فكان له حاشية كحاشية المصدر الأعظم، تضم مدير مكتبة الخاص (الكاهية، الكتنداء، الكيخية)، وكاتب الرسائل (المكتوبجي)، وحامل الأختام (مهردار)، وأمين الصندوق (الخرنسة دار)، وحامل السلاح (السلحدار)، والنشريفاتي (احتشامات غاسي)، ورئيس الإسطبل (ميرأقدار)، والحاجب (قبولراغاسي: أغنا البوابين). وكان مدير المكتب (الكتنداء) أقرب الناس إلى الوالي، وحلقة الوصل بينه وبين الناس، ونائبه ومتسلمه في حالة مرضه أو غيابه^(٢).

ولم تطبق قواعد ثابتة في تعيين الولاة ونقلهم ومدة حكمهم، فقد يعين أحدهم والياً على ولاية صغيرة ثم ينقل إلى أخرى كبيرة ليعود بعدها إلى ولاية أصغر. وقد يحكم إحدى الولايات ثلاث أو أربع مرات أو أكثر في فترات متوالية أو متقطعة، أو يعزل قبل أن يتم عامه أو شهره الأول. وقد أكثرت الدولة من تغيير الولاة، فلم يكن بعضهم يقضي في ولايته أكثر من عام واحد، وبعضهم أقل من شهر، بينما امتد حكم الآخرين إلى أكثر من ربع قرن. وبلغ عدد ولاة دمشق خلال العهد العثماني كله مائتين وسبعين والياً حكموها قرابة أربعة قرون، وطالت فترة حكم خمسة وعشرين منهم إلى أكثر من قرن ونصف^(٣).

وقد كان التغيير قليلاً خلال القرن السادس عشر، ثم ازداد في القرن السابع عشر. وقبل في القرن الثامن عشر ليزداد ثانية في القرن التاسع عشر، وقد حكم ولاية الشام خلال القرن التاسع عشر أربعة وستون والياً، وكانت فترة حكم أقلهم (خالد باشا) شهراً واحداً، وأطول فترة حكم (محمد راشد باشا) خمس سنين وثلاثة أشهر.

(١) غرايية، سورية، ص ٤٣-٤٤، ٦٠؛ برو، العرب والترك، ص ٤٨١-٤٨٣؛

-Richard Nyrop, Syria, A Country Study, p.18.

(٢) غرايية، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٣) غرايية، المرجع نفسه، ص ٤٢-٤٣؛ الزواهره، الحياة الاجتماعية، ص ٣٤.

العلماء وأتباع الطرق الصوفية:

شجعت الدولة العثمانية التصوف بين العثمانيين، ولم تتعرض لمشايخ الطرق الصوفية الذين كانوا يمارسون سلطات واسعة على أتباعهم. وقد انتشرت هذه الطرق انتشاراً واسعاً في آسيا الصغرى ثم انتشرت إلى معظم أقاليم الدولة. ويلاحظ أن حياة العامة الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ هذه الطرق أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة الرسميين. وقد مدت الدولة يد العون المالي إلى بعض أتباع الطرق الصوفية^(١).

والطريقة أو الطرائق الصوفية كانت تطلق على مجموعة الآداب والأخلاق التي تتمسك بها طائفة صوفية، ثم أصبحت تشمل مجموعة الأفراد من المتصوفين الذين يتبعون شيخاً معيناً، ويخضعون لنظام من السلوك اليومي، أو يحيون حياة اجتماعية في إحدى الزوايا أو الربط أو الخانقاه، أو في بعض المدارس والجوامع، ويلتقون بشكل دوري، أو في مناسبات دينية أو رسمية، أو عندما تملس الحاجة، حيث يعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام، ويتباحثون في المشكلات المختلفة. لذلك فإنه يمكن اعتبارهم تنظيمًا اجتماعيًا له تأثيره الواضح على المجتمع^(٢).

وقد شكّل الجهل الذي لف عقول الناس وقتئذ والعجز عن حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحتى الطبيعية، تربة خصبة لنمو الطرق الصوفية، حيث تلقى الناس ممارسات الصوفية وخزعبلات بعضهم وادعائهم الكرامات وفعل المعجزات بالقبول والتسليم، وربما وجدوا في ممارساتهم تلك وانضمامهم إلى تنظيماتهم متنفساً لمعاناتهم اليومية، فقد توهّم معظم الناس في أن الصوفية ملاذ يحميهم من الكوارث الطبيعية والنكبات الاقتصادية، وأن شيوخها يمكن أن يبعدوا الزلازل ويدفعوا أخطار الفيضانات، ويوقفوا الكوليرا والطاعون، ويشفوا المرضى^(٣).

(١) الشناول، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، ص ٥٩.

* الخانقاه: كلمة فارسية الأصل، أصلها خونگاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك في القرن السادس الهجري، وأصبحت فيما بعد تعني دار الصوفية، كما أنها تعني المكان الصالح للعبادة والأفعال الصالحة، وتأخذ الرباطات والتكايا نفس المعنى، إلا أن اختلافها هو في الحجم فقط، وكانت تتمركز في الريف، انظر: الزواهرة، الحياة الاجتماعية في لواء دمشق، ص ١١٤.

(٢) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص ٤٠٧.

(٣) الشطي، محمد جميل، روض البشر في أعيان القرن الثالث عشر، ص ١١٥.

ويتميز التصوف الإسلامي بأن المتصوفة لا يلزم أن ينقطعوا للطريقة، إذ كان يحق لمريديها أن يلتحقوا بها إرضاء لنوازعهم الروحية والدينية دون أن يخلوا بواجباتهم تجاه حرفهم وأعمالهم اليومية، ودون أن يكونوا عالة على أحد ما داموا يعملون، فهم بهذا يجمعون بين الدين والدنيا^(١).

وكان العلماء في دمشق بفضل نفوذهم الأخلاقي والديني والفكري على السكان المسلمين في المدينة في وضع يؤهلهم للوصول إلى منزلة الوجاهة، كما أن مقدرتهم على الوصول إلى هذا المركز كانت تعتمد على نجاحهم في الحصول على اعتراف أقرانهم واعتراف العثمانيين أيضا، ولم تكن المؤسسات الدينية والعلمية في دمشق مرتبة بشكل رسمي في تسلسل معين، ومع ذلك فقد كان بعضها موضع احترام أكثر من بعضها الآخر. وكانت هناك مجموعة من الجوامع والمدارس والزوايا وأمكنة أخرى للاجتماع غير الرسمي. وكان معظم العلماء ينتمون إلى ثلاث من المدارس الشرعية الإسلامية هي الحنفية والشافعية والحنبلية^(٢).

وكان العلماء المحليون في القرن التاسع عشر يعتمدون اعتمادا كبيرا على القوى المتنفذة في عاصمة الإمبراطورية من أجل تأمين مراكزهم ومن ثم الاحتفاظ بها. وكان كبار علماء دمشق يلجأون إلى تلك القوى متبعين شتى الوسائل من أجل الاحتفاظ بمراكزهم لأطول مدة ممكنة. ومن تلك المراكز: مركز الخطيب، ومفتي الأحناف الذين كان التنافس بينهما شديدا، نظرا لأهميتهما البالغة، فخطيب الجامع الأموي مثلا كان يعتبر صلة الوصل بين الحكومة والزعامات المحلية مما أعطاه نفوذا واسعا سياسيا ودينيا^(٣).

لقد أخذت العائلات الدينية البارزة تتفصل تدريجيا عن الاتجاهات المحلية وتتحاز إلى السلطة العثمانية. وكانت الطرق الصوفية الرئيسية في المدينة مثل (النقشبندية، والخلوتية) تعمل في معظم الأحيان برئاسة شيوخ من أهل العلم. ويبدو أن الوجهاء الدينيين كانوا يسعون للسيطرة على تلك الطرق لمجرد الحصول على ورقة رابحة في المنافسة التي كانت تجري بين العلماء من أجل الوصول إلى متنفذ في القسطنطينية يرعاهم ويؤمن حمايتهم^(٤).

(١) طربين، أحمد، الحياة العلمية في بلاد الشام، ج ٢، ص ٦٦٢-٦٦٣.

(٢) شليشر، ليندا، بعض مظاهر الأعيان في دمشق، ص ٣٣١؛ ولمعرفة المزيد عن مدارس كل طائفة من الأحناف والحنابلة والشافعيين انظر: دهمان، محمد أحمد، في رحاب دمشق، ص ٧٥-٧٨.

Richard, Nyrop, Syria, A Country Study, p61. -

(٣) فيليب خوري، طبيعة السلطة السياسية، المؤتمر الدولي الثاني، ج ٢، ص ٤٤؛ شليشر، بعض مظاهر الأعيان، المؤتمر الدولي الثاني لبلاد الشام، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٤) خوري، المرجع السابق، ص ٤٤٢.

وأهم الطرق الصوفية في دمشق هي:

١. الطريقة السعدية: وكان لها عدة زوايا في الشاغور وفي محلة القيمرية، ومركزها في الميدان، وكانت مشيخة الطريقة في آل الجبائي (١).
٢. الطريقة الصمادية القادرية: وتمركزت في محلة الشاغور وكانت مشيختها في آل الصمادي الأشراف (٢).
٣. الطريقة النقشبندية: منبقة عن الطريقة القادرية، وقد انتقلت إلى المشرق العربي من الهند بعد المواجهة بين المشرق العربي والمنافسة الغربية، وتعمقت في أوائل القرن التاسع عشر، وتمركزت في جامع السويقية (٣).
٤. الطريقة المولوية: كان لها تكية خاصة بها في دمشق وكان شيخها من الأعيان ويخاطب بعمدة الفضلاء والمدرسين. وخطب شيخها سنة ١٢٧٢هـ بـ (عمدة العلماء المدققين الكرام وزبدة الفضلاء المحترمين العظام الشيخ... شيخ سادات المولوية بدمشق) (٤).

ومن الخوانق التي انتشرت في الولاية: خانقاه خاتون المجاهدية، وخانقاه الطاحون، وخانقاه النجيبية والطواويس، بالإضافة إلى عدد من الربط مثل: ربط المزة المعروف بالحواجبية، ورباط أسد الدين، ورباط فيروز (٥).

وتعود أهمية الزوايا إلى أنها مراكز تجمع الناس في أوقات الأزمات، وذلك لمواجهة المشكلات وإيجاد الحلول. فقد انتشرت مراكز الصوفية في سائر أنحاء دمشق سواء في المدينة أم في الريف. ومن أهمها: خانقاه الطواويس، الزاوية الحصنية، الزاوية الرامدية، الزاوية الطالبية، وغيرها (٦).

(١) البيطار، الحلية، ج ١، ص ١٢-١٣، ص ٥٩٢.

(٢) سجل رقم ٥٥٨، سنة ١٢٨١هـ، ص ٨٢.

(٣) حنا، عبد الله، تحركات العامة في دمشق وحلب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، المؤتمر الدولي الثاني

لبلاد الشام، ج ٢، ص ٥١٧؛ البيطار، الحلية، ج ١، ص ٥٧.

(٤) سجل رقم ٤٧٢، سنة ١٢٧٢هـ، ص ١٠١.

(٥) دهمان، في رحاب دمشق، ص ٧٩-٨٠.

(٦) الحميري، الروض المعطار، ص ٢٤.

وكانت الطرق الصوفية تشارك في الاحتفالات الدينية والمدنية، وكان لكل طريقة أسلوبها الخاص ومظهرها الاحتفالي المميز^(١).

وكانت تلك الطرق تقيم أيضا احتفالاتها الدينية في تكاياها أو زواياها، ويرتدي أتباعها أزياء خاصة أثناء ذلك، فمثلا دراويش المولوية كانوا يرتدون زيا أبيض فضفاضاً وعلى رؤوسهم كلاه، أما شيخهم فيضع على رأسه عمامة خضراء، وكانوا يدورون حول أنفسهم على نغمات الموسيقى. وكانوا من حيث الأزياء صنفين، أولهما زاهد في الثياب لا يرتدي إلا الخشن منها ولا يبدل ثيابه إلا بعد مضي سنوات طويلة، في حين كان بعض المتصوفين يتصدق بالثياب الجديدة ويرتدي الخشن القديمة. أما الصنف الثاني فقد تميز بلباس الرأس ولون الشاش والجبّة، فأصحاب الطريقة الرفاعية كانوا يلفون الشاش الأخضر على التاج، والسادة الأشراف منهم يلفون الشاش على الطربوش، وألوان زيهم بشكل عام هي الأسمر والأبيض، أما أبناء الطريقتين الرفاعية والسعدية فلون زيهم أخضر^(٢).

وكانت بعض هذه الطرائق تقيم حفلات الأذكار في ليالي الأعياد الدينية كافة، وكان المريدون وشيوخ الطرائق يجتمعون في كل اثنين أو جمعة في أحد المساجد بعد صلاة المغرب أو العشاء يقيمون الأذكار. أما إذا كان اجتماعهم في دار عادية أو في زاويتهم الخاصة بهم فيهللون ويكبرون قياماً وقعوداً وركوعاً، وهم يذكرون الله تعالى أثناء ذلك، وينشد بعض ذوي الأصوات الجميلة أناشيد الزهاد أو أناشيد شيوخهم بصورة تتناسب مع أصوات التهليل، ثم ينتهي ذلك بالدعاء للمسلمين كافة والصالح لأولياء الأمور، ويتلون ما تيسر من آيات الله على أرواح المسلمين. وقد قامت الطرائق الصوفية بتنظيم مواكب زيارات خاصة إلى أضرحة الزهاد والأولياء في دمشق في أيام معينة من السنة، وكان يطلق على مواكبهم اسم السياره^(٣).

كان المريدون يسيرون في صفوف يتألف الواحد منها من خمسة أو أكثر يلبسون طواقي ملونة بحسب الطريقة، فمنها الأخضر والأحمر والبني، وعليهم أردية من اللون نفسه غالباً، ثم يأتي خلفهم حملة المزاهر يقرعونها بلطف، ويسير بينهم حامل لواء كبير له أطراف تنتهي بقطع من المرس يمسك بأطرافها بعض المريدين، ويتوزعون على مسافة منه وحوله ليساعدوا حامله

(١) نغيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٦٦٣.

(٢) المرجع نفسه، ج ١، ص ٦٦٤؛ ج ٢، ص ٥٨٥.

(٣) المرجع نفسه، ج ١، ص ٦٦٤؛ زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ١١٢.

كي لا يقع إذا ما هبت الريح، ثم يأتي بعدهم حامل الطبل الكبير و(الخليلية)^(١)، ويأتي خلفهما شيخ الطريقة راكبا على فرس ولايسا عمامة شيوخه الأوائل، ويحيط به جماعة من المريدين يحملون أعلاما صغيرة كتب عليها بعض الآيات القرآنية، ويأتي بعد ذلك طبقة المريدين الشبان يحملون نقارات صغيرة ويضربون عليها، ويأتي بعدهم المريدون المتبقون. وينطلق هذا الموكب من زاوية الطريقة الصوفية الخاصة بها إلى الضريح المراد زيارته بين التهليل والتكبير^(٢).

وكان يطلب من كل شيخ طريقة أن يدخل كهف مقام إبراهيم الخليل مع فرسه، وفي ذلك مجازفة لا يقدم عليها إلا من تأكد من طهارة جسمه، إذ قد يؤدي دخول الكهف بحياته، وإذا لم يستطع الشيخ الدخول فإن ذلك يسبب له حرجا أمام مريديه ومريدي الطرائق الأخرى. وكان الشيوخ يتعاقبون على الدخول بخيولهم، وكان يطلق على هذا المهرجان اسم (موسم جمعة بوزة) أو موسم (خميس المشايخ). ثم بعد ذلك تعود الموكب إلى زواياها التي انطلقت منها مجموعهم ومنها إلى بيوتهم^(٣).

وكان من أهم المساجد هو المسجد الجامع الأموي، الذي بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ/٧٠٧م وهو داخل المدينة^(٤). ومن أشهر التكايا التكية الموجودة في الصالحية التي أنشأها السلطان سليم بعد الفتح مباشرة، والتكية السلিমانيّة^(٥).

(١) عبارة عن صفيحتين من النحاس يضرب بهما حاملهما بإيقاع ينسجم مع ضربات الطبل.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٦، ص ١٣٠.

(٣) العلاف، أحمد، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص ١٣٠-١٣٣.

(٤) الدمشقي، أبو البقاء، نزهة الأنام في محاسن الشام، ص ٤٠-٤٣. ولمعرفة المزيد عن وصف الجامع الأموي انظر: عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ص ٤٧؛ بالإضافة إلى أحمد العوامري بك، مهذب ابن بطوطة، ص ٦٩-٧٠؛ أحمد وصفي زكريا، جولة أثرية، ص ٢٦١.

(٥) مجلة الحواشي الأثرية السورية، م ١٤، ص ٤٥-٤٧.

جدول (٣): جوامع ومساجد ومدارس وتكايا الولاية^(١):

المنطقة	زاوية	مدارس	مسجد	جامع
الشام	٧٣	٦٠	٧٤	١٦٥
بعلبك	٠٠	١	٢٥	٣٤
البقاع	١	٠٠	٢٨	٤
دوما	٠٠	٠٠	٥٥	٣٤
وادي العجم	٤	٠٠	١٥	٤٧
النبك	٠٠	٣	٤٤	١٢
حاصبيا	٠٠	٠٠	٣	١
راشيا	٠٠	٠٠	٠٠	١
حمه	٥	٣	٨	٢٩
حمص	١	٣	٦	٤٩
السليمية	٠٠	٠٠	١	٠٠
الحميدية	٠٠	٠٠	٠٠	٢
حوران	٠٠	٠٠	٠٠	٣
عجلون	٠٠	٠٠	١	٢
جبل حوران	٠٠	٤	١	٢٥
القنيطرة	٠٠	٠٠	٠٠	٤
الحديد	٠٠	٠٠	٠٠	١٢
درعا	٠٠	٠٠	٠٠	١
	٨٤	٧٤	٢٦١	٤٢٥

^(١) سالنامه ولاية سورية، ص ٣٣٧، ١٣١٥.

الحرفيون والصناع:

شكل الحرفيون فئة مهمة من فئات المجتمع، ولبنية أساسية في البنية السكانية لمدن ولاية سورية، وكانت تضمهم طوائف تسمى (أهل الحرفات)، أو (الطوائف الأصناف)، أو (طوائف الحرفة). وكان لكل حرفة رئيس أو شيخ يسمى شيخ السوق، يتلوه في الأهمية شيوخ الحرف، ثم الحرفيون بدرجاتهم المختلفة^(١).

ويعد تنظيم الحرفيين في طوائف تشبه النقابات اليوم صفة من الصفات المميزة للمدينة الإسلامية حتى القرن التاسع عشر. فالحرفيون من كل نوع كالنجارين والبنائين والتجار والموسيقيين والمغنين وحتى المتسولين كانت كل مجموعة منهم تنتظم في طائفة، وقد بلغ عدد طوائفهم في دمشق أكثر من مائتي طائفة، وكانوا عماد العامة^(٢)، وكثيراً ما تكاتفوا لحماية مصالحهم^(٣).

وكان للطائفة الحرفية تنظيم تسلسلي دقيق، فعلى رأس تجمع الطوائف شيخ المشايخ يليه النقيب، ثم شيخ الحرفة، ويأتي بعده المعلمون والصناع، وأخيراً المبتدون^(٤).

شيخ المشايخ: يرث هذا المنصب الأكبر سنّاً في العائلة مدى الحياة، فلا ينتخب ولا يعزل ولا يستبدل، ولا يخلع ولا يتقاضى راتباً، ومؤهله لهذا المنصب هو أصله الشريف، ووضعه المالي. وكان متولي مشيخة المشايخ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أحمد أفندي العجلاني نقيب الأشراف^(٥). وهو نفسه شيخ مشايخ الصوفية^(٦). مما يدل على أن هذا المنصب من تبعات نقيب الأشراف، ويتغير بتغير النقيب.

(١) يوسف، عبد الودود، طوائف الحرف والصناعات في حماه في القرن السادس عشر، مجلة الحوليات الأثرية السورية، م ١٩، ص ٨٦.

(٢) زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ١٢٠.

(٣) حنا، عبد الله، تحركات العامة، المؤتمر الدولي الثاني، ج ٢، ص ٥١١.

(٤) زواهره، المرجع السابق، ص ٢٠؛ Richard, Nyrop, Syria, A Country Study, p64.

(٥) البيطار، الحلبة، ج ١، ص ٣٤٠؛ غرايبة، سورية، ص ١٤٧.

(٦) الشطي، روض البشر، ص ٥٦.

وهكذا لم يكن عمل شيخ المشايخ مهنيًا بقدر ما كان شعائريًا يتعلق بالإشراف على إقامة الحفلات والطقوس بين أعضاء الحرف، ويرأس عملية الشد* التي تجري للمبتدئ عند انتقاله من درجته إلى درجة صانع، أو للصانع عند ارتقائه إلى درجة معلم. كما أنه يبارك شيخ الحرفة عند انتخابه. ويكون الشد بربط المرشح بالمحزم، وتتلّى الفاتحة عدة مرات، أما بالنسبة للمسيحي فتتلّى الصلاة الربانية، واليهودي الوصايا العشر، ويزود المشدود بالنصائح الأخلاقية والمهنية^(١).

ومن مهام شيخ المشايخ الإشراف على كل طوائف الحرف ومشايخها، وهو صلة الوصل بين الحكام وهذه الطوائف، ولا يتم أي تغيير فيها إلا بعلمه ورأيه. وكان مشايخ الحرف كلهم ينتخبون بحضوره^(٢).

وقد ضعفت سلطة شيخ المشايخ منذ عهد السلطان عبد المجيد (عهد التنظيمات الخيرية) واقتصرت على التصديق على تنصيب شيخ الحرفة بعد أن ينتخبه معلموها. ثم أهملت صلاحياته تماماً بعد ظهور نظام البلديات التي حلت محله في التصديق على التنظيم الحرفي^(٣).

النقيب: يلي شيخ المشايخ رتبة، وهو رسول شيخ المشايخ إلى شيوخ الحرف، ولا يشترط فيه النسب أو صفة مخصوصة، إذ يحق لشيخ المشايخ تعيين من أراد نقيباً، ويكون هنالك أكثر من نقيب، إلا أن النقيب يكون عادة أعلم من شيوخه بشؤون الحرف والصناعات^(٤)، وهو ينوب عنه في حالة انشغاله، ومن مهامه رفع المخالفات التي تقع في السوق إلى شيخ المشايخ، والقيام بشد الصانع أو المعلم، والتداول مع شيوخ الحرف بأمور الحرفة وشؤونها^(٥).

شيخ الحرفة: وهو شخص ينتخبه الحرفيون لرئاستهم، ويصدق على انتخابه شيخ المشايخ^(٦). ويشترط فيه حسن الخلق والمعرفة الجيدة بأصول الحرفة دون التقيد بسن معينة، إذ

* لمعرفة المزيد عن عملية الشد انظر: زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ١٢٢-١٢٥.

(١) كوثراني، السلطة والمجتمع، ص ٤٨.

(٢) زواهره، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٣) يوسف، عبد الوود، طوائف الحرف، ص ٨٦؛ زواهره، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٤) غرايبة، سورية، ص ١٤٨؛ عبد الكريم رافق، مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني،

مجلة دراسات تاريخية، ص ١٦٤-١٦٥.

(٥) زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ١٢٠.

(٦) يوسف، طوائف الحرف، ص ٨٦.

قد ينتخبون شاباً في العشرين شيخاً للحرفة ما دامت تتوافر فيه صفات الشيخ. ويكون الانتخاب بالإجماع وليس بالأكثرية، ويتدخل شيخ المشايخ لتعيين أحد المرشحين في حالة الخلاف، وقد يستمر الشيخ في منصبه طوال حياته، وقد يورثها لأبنائه، وله أن يستقيل متى أراد^(١).

وقد أطلق على شيخ الطائفة الحرفية لقب باشي، كما في طائفة القصابين التي عرف رئيسها بالقصاب باشي، وفي طائفة المعمارية، ويلاحظ بأن بعض مشايخ الحرف ورثوا المشيخة عن آبائهم أو أخوتهم ومع ذلك وجب عليهم الحصول على موافقة الطائفة^(٢).

واختير شيخ الطائفة من كبار الحرفيين في الطائفة، وكان يطلق عليه لقب أستاذ، كما أشير إليه بلقب معلم^(٣). ونظراً لأهمية هذا اللقب في المراتب المهنية فقد عرف أصحابه به، ومعلم الحرفة هو الذي يحق له إقامة مشغل خاص به يعمل فيه الصانع والأجراء^(٤).

ولم يكن شيخ الطائفة يتقاضى مرتباً من طائفته، وإنما كان يعيش في الغالب من عمله، وكان هناك بعض الامتيازات التي يتمتع بها^(٥). أما سلطته فكانت تشمل إدارة شؤون أبناء الطائفة، والاهتمام بحل مشكلاتهم، والإشراف على تنفيذ اتفاقاتهم، والطلب من القاضي تسجيل هذه الاتفاقيات، وكان يرفع شكاوى الطائفة على طائفة أخرى إلى القاضي نفسه، وكان الوالي يتصل بالطائفة عن طريقه^(٦).

وينوب الشاويش (الجاويش) عن شيخ الحرفة، كالنقيب عن شيخ المشايخ، إلا أن الشاويش يستحسن أن يكون من أهل الحرفة، وليس له حق قضائي أو سلطة قضائية، وهو رسول الشيخ الذي يدعو شيوخ الحرف وأصحابها لحضور مناسبة ما مثل الشد والولائم الخاصة بها. ويبلغ الجزاء لمن حكم عليه الشيخ بشيء، وهو أقرب إلى الصناع. ويبحث أصحاب الحرف على الثبات على مطالبهم لتحقيقها، وينتخبه رجال الحرفة^(٧).

(١) غرايبة، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٢) رافق، بعض مظاهر التنظيم الحرفي، ص ٣٥.

(٣) سجل رقم ٣٦٩، سنة ١٢٥٨ هـ، ص ٢٥٢.

(٤) رافق، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٥) رافق، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٦) كوثراني، السلطة والمجتمع، ص ٤٨.

(٧) رافق، المرجع السابق، ص ١٦٩؛ زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ١٢٢.

أما عامة الحرفيين فيمكن تقسيمهم إلى:

١. المبتدئ: وهو الولد الحديث السن الداخل إلى الحرفة لأول مرة، ويسمى بالأجير. وقد يمضي عدة سنوات وهو يعمل دون أجر، ومن المعلمين من يرتب للأولاد مبلغاً بسيطاً كل أسبوع يسمى (جمعية) وذلك حسب مهارة الأجير. ويبقى أجيراً حتى يدخل في سن الرجولة أو يصل إلى الإتقان في صناعته، حيث يدعى صانعاً. أما أجرته فتبقى منخفضة نوعاً ما، ولا يسمح له بافتتاح محل خاص به حتى يُشَدَّ^(١). ويتعلم المبتدئ صناعته بإحدى طريقتين: فهو إما أن ينضم إلى معلم يخدمه ويتعلم المهنة بانتباهه لكل ما يعمل به المعلم أو يعلمه إياه. وهذه الطريقة تحتاج إلى مدة طويلة لإتقان الصناعة بالكامل. وإما أن يدفع إلى معلمه مبلغاً معيناً لقاء تعليمه المهنة في مدة محددة^(٢).

٢. الصانع: وهو الذي يتقن صناعته ولكنه لم يصل إلى درجة المعلم بمهارته ولم يتمكن من فتح حانوت خاص يعمل به، وهو يعمل مع معلمه حسب اتفاق خاص يبين فيه أجره والمدة التي سيعمل بها عند معلمه^(٣)، ويجب أن يكون حسن السلوك، يعرف القراءة والكتابة^(٤).

٣. المعلم أو الأستاذ: وهو الذي أتقن صناعته تماماً، وتوافر لديه ما يكفي من المال لفتح حانوت خاص به يمارس فيه مهنته، والمعلمون هم الذين ينتخبون شيخ الحرفة وشيخ المشايخ^(٥).

ويختلف شد المعلم عن شد الصانع، فالمعلم لا يسمى أباً بالكار، ولا يربط له مئزر، ولا تؤخذ منه العهود بل يُكتفى بأخذ قول منه أن يحافظ على أصول كاره وحرفته^(٦).

وشكل الصانع العدد الأكبر في الحرفة بالمقارنة مع عدد المعلمين والأجراء، وكانوا عماد العمل في الحرفة. وكان المعلمون يحاولون تأخير ترقيةهم حتى لا ينافسوه. وكان على المعلم أن يدفع أجره دكانه ومصروفها، بما في ذلك تصليح عدة الشغل، ولا يتحمل الصانع شيئاً من ذلك^(٧).

(١) رافق، بعض مظاهر التنظيم الحرفي، ص ١٦٧؛ زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ١٢٢.

(٢) يوسف، طوائف الحرف، ص ٨٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٧؛ زواهره، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٤) زواهره، المرجع السابق، ص ١٢٢؛ يوسف، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٥) يوسف، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٦) زواهره، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٧) رافق، المرجع السابق، ص ١٦٦.

هذا وقد وجدت في دمشق منذ القرن الثامن عشر سبع طوائف من المغاربة، رأس كل طائفة منها شيخ مسؤول أمام شيخ المشايخ، وهو رئيس المغاربة في دمشق، وهذه الطوائف هي: الفاسية، والجزائرية، والسوسية، والتونسية، والطرابلسية، والدرأوية، والمراكشية. وكان شيوخ الطوائف المغربية، وعلى رأسهم شيخ المشايخ، مسؤولين أمام السلطات العثمانية عن سلوك أفراد طوائفهم. وأما العسكريون من المغاربة فقد خضعوا لأغا المغاربة. وكانوا إذا ما تركوا الخدمة العسكرية أصبحوا في عهدة شيخ الطائفة التي ينتمون إليها^(١).

وقد وجد لكل حرفة نقابة، فكان للطيفيين والمهرجين والشحاذين نقابات وشيوخ جاويشية، وكانت نقابة الشحاذين توزع العمل على أفرادها وتحدد أماكن وقوفهم وتجوالهم، وكانت تضع رموزاً لنشر الأخبار التي تهمهم^(٢). ولعب بعض شيوخ حرفة الطحن دوراً خطيراً وذلك بسبب تلاعبهم بالأسعار والغش، وأيضاً لاتفاقهم مع كثير من الحكام والولاة من أجل جمع الأموال^(٣).

وقد كان للطائفة الحرفية علاقة مع الطرائق الصوفية حيث كانت تلك الطرائق تتوزع في الأسواق والحارات، ويقول كوثراني في هذا المجال: ((وكانت الطائفة تخدم عدة أغراض، فقد كانت توفر الوسيلة التي تمكن أقل المواطنين شأنًا من التعبير عن غرائزه الاجتماعية والاطمئنان إلى مكانته في النظام الاجتماعي وكانت الحال الذي يمارس فيه حق المواطنة: فهو وإن لم يكن يستدعي إلا نادراً لكي يلعب أي دور في السياسة الخارجية إلا أنه من الناحية المقابلة كان في مأمن من أن يتدخل حكامه السياسيون في شؤونه إلا بشكل طفيف، إذ كانوا بوجه عام يحترمون استقلال الطوائف وطرائقها التقليدية. ومما كان ينمي الوظيفية الاجتماعية للطوائف وبخاصة طوائف الحرف ما لها عادة من ارتباطات مع إحدى الطرق الصوفية))^(٤).

(١) رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي، ص ١٤٢.

(٢) غرايبة، سورية، ص ١٥٠.

(٣) حسن آغا العبد، تاريخ حسن آغا العبد، ص ٢٧.

(٤) كوثراني، السلطة والمجتمع، ص ٥٠.

الحرف والصناعات:

وجدت في ولاية سورية خلال فترة الدراسة صناعات وحرف مختلفة أهمها الصناعات الغذائية، والصناعات النسيجية، ودباغة الجلود وصناعة الأحذية. وكانت صناعة الزيت، والدبس، والجبن، والسمن، والزبدة، والقشدة، والطحينة، والسيرج من السمس أهم الصناعات الغذائية، وهي صناعات محلية يمكن لكل بيت إنتاجها كمؤونة للسنة^(١). وكان غالب أصحاب الحوانيت من المسلمين. وقد أثرت بعض الأسر من خلال تجارتها بالحبوب مثل آل القوتلي، والنوري، والبلبكي، وسيطر المسلمون الأعيان على حرفة العلافه، وكانت غالبية المقاهي يملكها المسلمون وخاصة الأعيان^(٢).

أما الصناعات النسيجية فأهمها حياكة القطن، ونسج العمام والكثان، والبسط^(٣). وهناك صناعة الفتالة، وكانت حرفة يشترك فيها الذمي والمسلم، وانتشرت صناعة الملابس المزركشة وصناعة الاغباني^(٤). وانتشرت حياكة السجاد والبسط في دمشق، وقد بلغ عدد أنوال المنسوجات فيها خلال ١٥ سنة ٢٠٠٠ نول للحلاجة، و ٨٠ نولاً قطنياً، و ٨٠ للشالات والكثانيات. وتطورت حتى صارت ١٠٠ نول للحلاجة و ٤٥٠ للقطن، و ٢٠٠ للشالات^(٥).

وفيما يتعلق بحرفة الدباغة ومتعلقاتها فقد وجدت اهتماماً كبيراً، إذ اشتغل بها كثيرون، وكانت الجلود المذبوغة تستخدم في صنع الأحذية والسروج، ووجدت عدة مدابغ في باب السلام تقوم بدبغ الجلود وصناعة الأحذية^(٦). وارتبطت بها حرفة البويجية^(٧) التي كان يمارسها فقراء شبان اليهود.

ووجدت إلى جوانب الطوائف الحرفية السابقة طوائف البنائين والصياغ والصناعات الخشبية والطوائف المهتمة بالناحية العلمية^(٨).

(١) زكريا، الريف السوري، ج ١، ص ٨٨.

(٢) شليشر، بعض مظاهر الأعيان.

(٣) الصالح، ضوء المراج فيما قيل في النساج، ص ٧٩-٨٠.

(٤) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ١، ص ٤٥.

(٥) البشير، العدد ١١٧٩، السنة ٢١، ٢٩ أيار، ١٨٩٥م، ص ٣.

(٦) زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ١٣٠.

(٧) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ١، ص ٦٩.

(٨) المرجع السابق، ج ١، ص ٥١، ١٠٥، الدمشقي، نزعة الأنا، ص ٣٦٣.

وكثيراً ما كان الشخص ينسب إلى المهنة التي يعمل بها مثل الخباز، والزيت، والنجار، والحجار، والمعلم^(١)، والخياط^(٢)، والحلاق^(٣)، والنحاس^(٤).

ومن أهم الأسواق (المتخصصة) التي شهدتها دمشق: سوق العلبية وهي التي كانت تصنع فيها العلب الخشبية، وسوق الدقاقين، والسوق الطويلة، وسوق القصارين، وسوق القباقيب، لصنع الأحذية الخشبية، وسوق البزوريه للعطارين وباعة السكاكر والحلويات، وسوق الحبالين لبيع الخيطان والحبال، وسوق القطن، وسوق الحرير، وسوق الخياطين للجوخ، وسوق باب البريد للبضائع الأوروبية، وسوق العصريونية للأدوات المطبخية، وسوق الأروام للدلالين، وسوق القميلة للأثاث والنحاس المستعمل، وسوق السروجية لمعدات الخيول، وسوق علي باشا للفواكه، وسوق الخيل، وسوق الجمال، وسوق الحمير، وسوق المناخلية، وسوق البقر، وسوق البوابجية^(٥).

طبقة العبيد:

شكل العبيد (الرقيق) فئة اجتماعية دنيا، وكان تجار الرقيق يحصلون عليهم بثلاث طرق هي: الخطف، والأسر، والشراء^(٦).

وكان الرقيق يقومون بمختلف الأعمال الزراعية والتجارية، حيث يقومون بفلاحة الأرض، بالإضافة إلى الخدمة في البيوت^(٧). وقد وجد في بيوت بعض العائلات الأرستقراطية الغنية بعض الإماء للمساعدة في أعمال المنزل^(٨). وكان معظم الأغنياء والتجار وأكابر دمشق

(١) سجل رقم ٦١٤، سنة ١٢٨٦-١٢٨٧هـ، ص ١١٥.

(٢) سجل رقم ٦٥٠، سنة ١٣٢٤هـ، ص ٢٠٤.

(٣) جريدة ولاية سورية، العدد ١٠٩٣، ١ كانون الثاني ١٣٠٣هـ، ص ١.

(٤) سجل رقم ٣٦٩، سنة ١٢٥٨هـ، ص ٩٦، ١٩٤، ٢٥٢.

(٥) غرايبة، سورية، ص ١٤٣؛ قساطلي، الروض الغناء، ص ٩٧-٩٨؛ زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ١٣٦؛ الخياري، رحلة الخياري، ج ١، ص ١٧٥؛ عبد الرحمن سامي بك، القول الحق في بيروت ودمشق، ص ٧٦.

(٦) نعيمه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٣٦٠.

(٧) الحمود، عمان وجوارها، ص ١٩٩.

(٨) الصباغ، ليلي، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، ص ١٤٥.

يوجد في دورهم جوار وعبيد، وكانت الجارية تبقى في بيت سيدها إلى أن تصبح في سن يؤهلها للزواج^(١).

وكانت عادة التجارة بالرقيق منتشرة في الولاية وبخاصة في دمشق، حيث كان النخاس* يقوم بشراء وبيع الرقيق في السوق، ومع مرور الزمن تلاشت هذه العادة وأصبحت نادرة، وأصبح موسم الحج هو الطريق الوحيد للحصول على العبيد^(٢).

وكانت العادة أن يمنح الرقيق اسماً عربياً، ويكنى بابن أو بنت عبد الله، وكذلك كان ينسب إلى السيد المالك، وبعد عتقه كان يكنى بمعتوق فلان، وتكنى الجارية بمستولدة فلان^(٣)، وكان يحق للرقيق الذي حصل على حريته أن يمارس حقه في الحياة ويحاول مختلف النشاطات^(٤).

(١) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج٢، ص ٤٨١.

* النخاس: هو الشخص الذي يتاجر بالرقيق.

(٢) القاسمي، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٨٠.

(٣) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج١، ص ٣٦٢.

(٤) الحمود، عمان وجوارها، ص ١٩٩.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية في المدن

١. الأسرة.
٢. الأزياء وأدوات الزينة.
٣. المأكّل والمشرب.
٤. العادات والتقاليد.
٥. الأوضاع الصحية.
٦. الأمن.

الحياة الاجتماعية في المدن

تشكل الحياة الاجتماعية في المدن جانباً مهماً من جوانب الحياة الاجتماعية العامة في ولاية سورية. والإحاطة بتفاصيل تلك الحياة تقتضي تناول عناصرها المختلفة وهي: الأسرة، والأزياء، والمأكول والمشرب، والأوضاع الصحية، والأمن.

الأسرة:

تعتبر الأسرة أصغر وحدة اجتماعية في البناء الاجتماعي، وتتألف - كما هو معروف - من الأب، وهو رأس الأسرة ورئيسها، وتتبعه الزوجة والأولاد، بالإضافة إلى الجد والجدة والعم والعمة والشقيقات والأشقاء. وقد كانت الأسر في المدينة ترتبط ببعضها من خلال عدة روابط مثل رابطة الشرافة (أسر الأشراف)، والأسر الوجيهة والحاكمة من الأعيان، والرابطة الحرفية، والرابطة المذهبية فيما يتعلق بغير المسلمين السنة، والرابطة العرقية^(١).

والخطوة الأولى لتكوين الأسرة هي الزواج، والسن المناسبة للزواج في الأسر المدنية كانت بين عشرين وثلاثين سنة للشباب^(٢)، وبين خمس عشرة وعشرين سنة للإناث^(٣). ومتى بلغ الشاب سن الزواج كان عميد أسرته يرسل عميدة العائلة مع من ترضاه من أخت وعمة وخالة وبعض خواص الجيران إلى بيوت المدينة وأحيائها لتبحث له عن الزوجة المناسبة، وهي عادة تلك التي تتوافر فيها الكفاءة من حيث الثروة والسن والأدب. وقد يستمر البحث عاماً كاملاً، حيث يزرن البيوت المعروف أنها لأسر فيها بنات في سن الزواج، وهؤلاء البنات يناط بهن تقديم القهوة للخاطبات، وهي فرصة تتيح لهن تأمل البنت، ووزن مشيتها، وطريقتها في نقل أقدامها. وعندما يقع الاختيار على إحداهن يذهبن بها إلى الحمام حيث تتعري، فيرين جسمها وشعرها، ويشممن ثيابها لمعرفة فيما إذا كانت تتعرق، وما إذا كانت رائحتها طيبة، وينقلن كل ذلك مع وصف شكلها وجمالها إلى الخاطب^(٤).

(١) شليشر، بعض مظاهر الأعيان، ص ١٠٦.

(٢) كرد علي، الخطط، ج ٦، ص ٢٧٧.

(٣) الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٦٨.

(٤) العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص ٨٤.

وبعد أن يتم تحري مواصفات المخطوبة وصفاتها يأتي دورها لتحري أخلاق الخاطب وما يتعلق به من شؤون مختلفة، وهي وظيفة تقوم بها النساء أيضاً، حيث يزرن الحي القاطن فيه الخاطب سرا، ويرسلن من يتقن به من أقربائهن وجيرانهن، فيدخلن غالباً بيوت الحي سائلات عن أخلاق الخاطب، وثروته، وتجارته، ووظيفته، ومركز أسرته الاجتماعية. كما يتقصين آداب بيت الخاطب، ويذهبن بالمخطوبة سرا إلى حيث يمكنها رؤيته، وقد يكون ذلك في طريق ذهابه وإيابه. وإذا ما وافقت عليه بعد تلك العمليات الاستخبارية يرفعن الأمر إلى عميد أسرة المخطوبة^(١)، وبذلك تنتهي مهمة النساء.

وبعد التثبت من موافقة الشاب والفتاة المبدئية يتألف وفد برئاسة عميد أسرة الخاطب إلى دار البنت لطلب الموافقة على الزواج، وعندما يتم ذلك يتم تحديد المهر، وتقرأ الفاتحة إذاناً بالموافقة النهائية. وبعد ثلاثة أيام يقدم الخاطب خاتم الخطبة. وبعد ذلك بنحو أسبوع - على الأغلب - يتم الاحتفال بكتب الكتاب، وهو ما يقوم به الخاطب، إذ يدعو أهله ومعارفه معينا يوم الدعوة ووقتها. وتقوم أسرة المخطوبة بدعوة من تريد من الأهل والأصدقاء. وبعد ذلك يجتمع المدعوون في المكان المحدد ويفتح الحفل بقراءة المولد، وتناول المرطبات والحلوى، وينتهي بدفع المهر المقرر^(٢).

وبعد شهرين أو ثلاثة من كتابة الكتاب يذهب وفد نسائي من قبل العروس بعد أن يكون أهل العروس قد أتموا لوازمها، ويحملن هدية تختلف بحسب مكانتها تسمى (تعينه) حيث يعين موعد حفلة العرس، وعدد المدعوات من أهل العروس. وفي ليلة الحفلة يرسل وفد من النساء في مركبات إلى دار العروس ليأتى بها من دارها مع المدعوات إلى دار العريس، ويحيي عادة تلك الحفلة المغنيات والمطربات اللواتي يقضين تلك الليلة بالغناء والرقص، ثم تعود السيدات المدعوات إلى دورهن، ويبقى عند العروس بعض الخواص من أهلها: أمها، وعمتها، وخالتها لمدة سبعة أيام.

أما الحفلة الخاصة بالعريس فتسمى (تلبيسة)، وتبدأ بتقديم أحد وجوه أسرته لإقامة تلك الحفلة في داره، وهي حفلة موسيقية يدعو إليها جميع أقارب العريس وأصدقائه وجيرانه، وعندما يحين وقت ارتداء العريس ثيابه يهزج الشباب عند إلباسه كل قطعة منها بأهازيج وطنية

(١) كرد علي، الخطط، ج٦، ص ٢٧٧.

(٢) المرجع السابق، ج٦، ص ٢٧٨.

عامة، ثم يذهب به الحضور إلى دار العروس وهم يهزجون، ويدخلونه الدار مع عميد أسرته الذي يصطحبه إلى أن يضع يده بيد عروسه ثم يدخلهما إلى غرفة العريس ويذهب^(١).

وكانت المهور متفاوتة تفاوتاً كبيراً، وأقل مهر مؤجل بلغ قرشين اثنين ونصف القرش. وقد أوردت السجلات مبالغ مختلفة للمهر المعجل والمؤجل، منها ثلاثمائة قرش (معجل) ومائة وخمسون قرشاً (مؤجل)، وخمسمائة قرش (معجل) ومائتان وخمسون قرشاً (مؤجل)، وستمائة قرش (معجل) وألف قرش (مؤجل)^(٢). وفي بعض الحالات قدر المهر بأربعمائة وخمسين قرشاً^(٣)، أو ألف ومائتي قرش^(٤).

وكان الطلاق أكثر ما يهدد حياة الأسرة، وكثيراً ما كانت المرأة تخلع نفسها لدى القاضي الشرعي مع بيان سبب الخلع. وقد تتنازل عن النفقة والمؤخر لقاء خلعه^(٥)، مثل: ((سألت الحرمة أمنة بنت خليل بعلمها أحمد بن يحيى عبد الرزاق بأن يخلعها من عصمته وعقد نكاحه على براءة ذمته من مؤخر صداقي عليه وقدره ثلاثمائة قرش. فاستجاب لطلبها وخلعها))^(٦). وقد تدفع مبلغاً إضافياً لافتداء نفسها^(٧). أما سبب خلع المرأة نفسها فقد يكون غياب زوجها مدة طويلة تصل إلى خمس سنوات^(٨). ومن النساء من توكل من يخلعها من زوجها^(٩). وقد تخلع المرأة ابنتها من زوجها. وللزوج الحق في رد زوجته بعد الطعن بالخلع.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تعدد الزوجات كان أمراً مألوفاً لدى أعيان المدينة، وقد يصل عدد الزوجات إلى ثلاث أو أربع في آن واحد.

(١) كرد علي، الخطط، ج ٦، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٨٨.

(٣) سجل رقم ٦٥٠، سنة ١٣٢٤-١٣٢٥هـ، ص ١٨.

(٤) السجل نفسه، ص ٢١.

(٥) سجل رقم ٦١٤، سنة ١٢٨٦-١٢٨٧هـ، ص ١٣٥.

(٦) سجل رقم ٣٦٩، سنة ١٢٥٧هـ، ص ١٤٦.

(٧) سجل رقم ٦٥٠، سنة ١٣٢٤-١٣٢٥هـ، ص ١٨، ٢٠؛ سجل رقم ٣٦٩، سنة ١٢٥٨هـ، ص ١٤٦.

(٨) الهدى، العدد ٢٤٢، السنة ١٣، ١٥ ك، ١٩١٠م، ص ٣.

(٩) سجل رقم ٤٧٤، سنة ١٢٧٢هـ، ص ١٦٠.

وللمرأة كفرد من الأسرة حق الإرث، والمطالبة بالحصول على حصتها من التركة سواء كانت من مخلفات زوجها أم من مخلفات أولادها^(١)، أو أي من أقاربها الذين يحق وراثتهم قانوناً وشرعاً. وعند استلامها حصتها المقررة تذهب إلى المحكمة للإقرار باستلامها. هذا مع العلم بأنها قد تتنازل عن حصتها لأحد من ذويها.

وكانت المرأة تقوم بتنظيم الوكالات لوكلاء عنها، وربما يكون الوكيل غريباً عنها^(٢)، أو زوجها^(٣)، مثل: ((اشترى سعد بن وجيه بالوكالة الشرعية عن زوجته الحرمة ماجدة بنت عبد الله الكاملة من قاسم بن وهبه جميع الدار المشتملة على ساحة سماوية ومسكن ومنافع شرعية))، أو شقيقها^(٤)، أو أحد أقاربها^(٥). وكان بإمكانها إلغاء الوكالة لدى المحكمة في حالة مخالفة الوكيل للشروط المنصوص عليها في الوكالة، أو لسبب تراه في الوكيل^(٦).

وكان للمرأة دور في الوصاية الشرعية ومساهمة فيها، فكثيراً ما نجد أن فلانة وصية شرعية على أولاد قاصرين، فقد تعين المرأة وصية شرعية على تركة أخيها^(٧)، أو على أولادها القصر^(٨)، مثل: ((قيام المرأة زاهرة بنت كنانة بالوصاية على ولدها صالح بن الحاج أسعد النملاوي))، أو وصية شرعية على ابنتها البكر القاصر. وللمرأة على زوجها حق النفقة عليها وعلى أولادها^(٩)، مثل: ((محمد آغا بن درويش آغا عندما فرض عليه برسم نفقته على زوجته فاطمة بنت علي آغا شيخ الصناع))^(١٠).

وعملت المرأة كمعلمة للبنات، كما عملت في الحمامات ودور النساء؛ وكان من النساء: الأسطة البلانة، وعملت في توليد النساء وتزيين العرائس والتمسيد (التدليك)، ومرضعة للأطفال، وخبازة، وخياطة، وغسالة متوفيات، ومغسالة في بيوت الأغنياء، وكحالة للعيون، وخادمة،

(١) سجل رقم ٣٦٨، سنة ١٢٧١هـ، ص ١٧٠، ١٧٥.

(٢) سجل رقم ٣٦٨، سنة ١٢٧١هـ، ص ١٢٠.

(٣) سجل رقم ٣٦٩، سنة ١٢٥٨هـ، ص ١٤٠؛ سجل رقم ٦١٤، سنة ١٢٨٦-١٢٨٧هـ، ص ١١٠.

(٤) سجل رقم ٦١٤، سنة ١٢٨٦-١٢٨٧هـ، ص ١٠٤، ١١٩.

(٥) سجل رقم ٣٦٩، سنة ١٢٥٨هـ، ص ٨٦.

(٦) جريدة ولاية سورية، العدد ١٠٥٥، السنة ٢١، ٢٧ مارس ١٣٠٣هـ، ص ١.

(٧) سجل رقم ٣٧٠، سنة ١٢٥٧-١٢٥٨هـ، ص ٤٢٢.

(٨) سجل رقم ٣٦٨، سنة ١٢٧١هـ، ص ٨٠؛ سجل رقم ٦٢١، سنة ١٨٦٧-١٨٧٠هـ، ص ٨٦، ١٢٥.

(٩) سجل رقم ٣٧٠، سنة ١٢٥٧-١٢٥٨هـ، ص ٤٣٥.

(١٠) سجل رقم ٦١٤، سنة ١٢٨٦-١٢٨٧هـ، ص ١٢٣.

وطباخة. وكان من أعمال النساء التطريز والنسيج والتعشيب. أما النساء الأرستقراطيات فعملن ببعض الأعمال المنزلية وأعمال الإبرة والصنارة والغزل، وأوكلن ما عدا ذلك إلى الخدم والجواري تحت إشرافهن^(١).

وساهمت المرأة في عمليات البيع والشراء بنفسها ولنفسها أو لغيرها، كما كانت تجري عمليات البيع والشراء عن طريق الوكلاء^(٢)، إذ كان ممكناً أن تباع وتشترى من أخيها^(٣)، أو زوجها^(٤)، أو أختها^(٥)، أو بنتها، أو ابنها^(٦)، أو أي طرف آخر غريب، رجلاً كان أو امرأة^(٧).

البيوت وموجوداتها:

اختلفت البيوت في المدن عنها في القرى والأرياف حيث وجد لكل منها طابع يميزها عن الأخرى، ففي المدن كانت كل دار تحتوي على حوش وبئر ماء يغطيها باب من الحجر، وكان لكل دار فناء داخلي، وفي وسط الفناء فوارة أو حوض ماء، وكانت أغلب البيوت تبنى من الحجر بالإضافة إلى الخشب والطين^(٨).

وقد اشتملت بعض البيوت على ساحة سماوية ومساكن ومنافع شرعية وبركة ماء وسلم حجر يصعد منه إلى الفرنكات^(٩)، واشتمل بعضها الآخر بالإضافة إلى الساحة السماوية على بركة ماء وإيوان وثلاث مربعات وقاعدة بثلاث إيوانات بها بركة ماء وخزانتان داخلهما مطبخ وسلم حجر يصعد منه إلى ثلاث فرنكات وطبقة مشارب ومنافع شرعية^(١٠). واشتمل بعضها

(١) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٥٣٤-٥٣٥.

(٢) سجل ٣٦٩، ١٢٥٨هـ، ص ٨٦، ١٤٠؛ سجل ٣٧٠، ١٢٥٧هـ، ص ٣٩٨.

(٣) سجل ٦١٤، ١٨٦٤م، ص ١١٢.

(٤) سجل ٦١٤، ١٨٦٤م، ص ١١٢.

(٥) سجل ٣٧٠، ١٢٥٧هـ، ص ٤٤؛ سجل ٣٦٨، ١٢٧١هـ، ص ٤٥٠.

(٦) سجل ٣٦٨، ١٢٧١هـ، ص ٤٥؛ سجل ٣٦٩، ١٢٥٨هـ، ص ٤١٠.

(٧) سجل ٦١٤، ١٨٦٤م، ص ٨٦، ١٣٣؛ سجل ٣٧٠، ١٢٧٥هـ، ص ٢٦.

(٨) كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٨٠.

(٩) سجل رقم ٩٥٩، ١٣٠٨هـ، ص ٣.

(١٠) السجل السابق، ص ١١٤.

أيضا على مساكن سفلية وعلوية وجانبية فيها غراس أشجار وفواكه متنوعة^(١)، بالإضافة إلى وجود بيت للمونة داخل المطبخ^(٢).

وقد احتوت هذه البيوت على أنواع متعددة من الأثاث، فوجد فيها بعض المخدات القش، وفرشات الصوف، ولحف القطن، وشراشف بشاكير، وأمشاط عظم، وطاسة للطبخ^(٣)، وكاسات وبسط وبرادي^(٤)، وسجاد عجمي ومخدات قطن وطراحة قطن وصندوق مطعم وصدر نحاس وصينية نحاس وطشت وإبريق وطنجرة وطراييزة كبيرة ومثرييات بلور، وصحون وزبادي صيني^(٥).

أما الفلاحون فقد سكن بعضهم في أكواخ من الطين والقش تشاركهم فيها مواشيهم في بعض الأحيان^(٦)، وكان يبني داخل البيوت بيت للمونة. وكان الفلاح يقطع جزءا من البيت لخزن الحبوب والدقيق^(٧). ويشمل كل منزل على مدخل صغير يؤدي إلى ساحة واسعة وحولها الغرف^(٨)، وغالبا ما تتكون بيوت الفلاحين من غرفة واحدة أو غرفتين وأمام البيت ساحة سماوية تحتوي على بركة ماء. ويضم الحوض في إحدى زواياه مكانا لإيواء الحيوانات، ومكانا آخر لحفظ الحطب والتبن والأدوات الزراعية^(٩).

وقد استخدمت أنواع متعددة من مواد البناء، فاستخدموا الحجارة الكلسية في بعضها، وبعضها بني بالطين، والبعض الآخر بني بالتراب (الدك)، ومنهم من استخدم الخشب والطين في بناء الجدران^(١٠).

(١) سجل رقم ٩٥٩، ١٣٠٨ هـ، ص ٩٦.

(٢) السجل السابق، ص ٧١.

(٣) سجل رقم ٩٥٩، ١٣٠٩ هـ، ص ٢.

(٤) السجل السابق، ص ١١٩.

(٥) السجل السابق، ص ٨٩.

(٦) محافظة، الاتجاهات الفكرية، ١٦٠.

(٧) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٥٠٨.

(٨) أبو الشعر، هند، إربد وجوارها، ر.ح، ص ٦٣١.

(٩) طريف، جورج، مدينة السلط، ر.ح، ص ٢٤٩.

(١٠) نعيسه، مجمع سابق، ج ٢، ص ٤٩٠.

أما مفروشات البيت فكانت من الحصر واللباد والجلود والأغنام، بالإضافة إلى البسط
والمساند في بيوت أغنياء الفلاحين^(١)، وتآلف أثاث البيت من الأباريق النحاسية والبسط لفرش
البيوت والطاحونة اليدوية^(٢)، والسكملات والصناديق والمرايا والكراسي. وفي المطبخ استخدمت
المقالي والأواني النحاسية وبعض الأواني الصينية كالزبادي والصحون^(٣).

وأما بيوت البدو فقد كانت العشيرة تبني خيامها في صفين، ويبني بيت الشيخ في الصف
الغربي أو الأوسط، ويتميز عن غيره من البيوت برفع شارعته* عن بقية البيوت، وتتصب بقية
البيوت على جانبي بيت الشيخ^(٤).

وكانت بيوت الشعر تصنع من شعر الماعز الأسود، ويكون مستطيل الشكل، ويقام على
أعمدة. وتسمى أطراف البيت من اليمين والشمال (المرفعة)، أما دائر البيت من الخلف فيسمى
(الرواق)، ويسمى دائر البيت من الأمام (العناد) ويسمى ما يفصل الشق (محل الضيوف) عن
المحرم (مقام النساء) بالساحة، وهي شقة عريضة لا يقل عرضها عن متر ونصف منسوجة من
الشعر الأسود تتخللها نقوش بيضاء من القطن^(٥).

وكان البدو يفرشون بيوتهم باللباد، وهو من الصوف المندوف، وغالباً ما يستخدمونه
عوضاً عن الفراش^(٦).

(١) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٥١٢.

(٢) أبو الشعر، إربد وجوارها، ر.ح، ص ٦٣٢.

(٣) نعيسه، المرجع السابق، ص ٥٠٠.

* الشارع: هي العمود الأمامي من الشق.

(٤) القسوس، عودة، القضاء البدوي، ص ١٠٨.

(٥) المرجع السابق، ص ١٠٦-١٠٨.

(٦) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ٢، ص ٣٩٩.

الأزياء وأدوات الزينة:

لم يهتم العثمانيون - بعد احتلال بلاد الشام - بتغيير الأزياء الشعبية التي كانت سائدة فيها، والتغيير الوحيد الذي شاهدها الولاية كان أزياء الهيئة الحاكمة بما فيها أزياء الجند العثمانيين^(١)، وبقي الحال كذلك إلى فترة الإصلاحات وخاصة في عهد السلطان محمود الثاني وما بعده، حيث سعى لإدخال الأزياء الغربية إلى جهاز السلطة العثمانية، ولكن تأثير ذلك على الولاية ظل محدوداً حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث أصبح انتشارها أكثر اتساعاً، وخاصة بعد أن خضعت للحكم المصري.

وتعود بعض الأزياء الشعبية إلى أصول عربية قديمة كنعانية وأرامية وأشورية، أو عربية إسلامية، أو غير عربية مثل الفارسية واليونانية والبيزنطية مع تأثيرات لأقوام آخرين مثل الهنود وغيرهم ممن جاؤوا إلى بلاد الشام^(٢).

ويلاحظ أن هناك فروقاً في الأزياء بين أفراد الهيئة الحاكمة وبقية أبناء الشعب، وتمايزاً بين كل فئة وأخرى من فئات الهيئة الحاكمة، فزي الوالي يختلف عن زي الدفتردار، والدفتردار يختلف عن القاضي، والقاضي يختلف عن نوابه. وهناك اختلاف بين أبناء العامة الأصليين وأبناء الأقاليم الأخرى الوافدين إلى الولاية. وكانت أزياء الفلاحين تختلف حسب قراهم وأقاليمهم، كما كان زي المسلمين يختلف عن زي أهل الذمة، وأزياء أهل الذمة كانت تختلف باختلاف مذاهبهم^(٣).

أزياء الهيئة الحاكمة:

كانت للهيئة الحاكمة أزياء مميزة يتم ارتداؤها في المناسبات الرسمية والدينية، وكانت موحدة تقريباً في الولايات العثمانية. واتسمت بإسرافها في استخدام الفراء الذي كان على أنواع عديدة بحسب جلود الحيوانات الفرائية^(٤).

(١) رافق، تاريخ المشرق العربي والمهد العثماني، ص ٥٩.

(٢) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٤١٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٣٠.

وأكثر ما يلفت الانتباه في أزياء الهيئة الحاكمة هو لباس الرأس أو العمامة، وقد سميت بأسماء مختلفة، ولبسها رجال الدين والموظفون الدينيون، والقضاة ونوابهم، والمفتون، ونقباء الأشراف، وخطباء الجوامع، ومدرسو المدارس، والأعيان، والولاة، والدفتردار، والأغوات، ومشايخ الحازات، وغيرهم. وتألقت العمامة من ثلاثة أجزاء هي: الطاقية المستديرة من القطن، وهي بيضاء اللون، وكانت تلبس على الرأس مباشرة، ثم يأتي فوقها الطربوش أو القاووق، ويلف عليه الشاش، وكان بألوان مختلفة، وكانت طريقة لفه تختلف من شخصية لأخرى. وكانت العمامة الأسطوانية أكثر شيوعاً لدى الهيئة الحاكمة. وكان القضاة الأتراك يلبسونها، ثم قام علماء دمشق بتقليدهم. أما الأشراف فلفوا الأغباني على الطربوش^(١).

وقد أبطلت العمامة على المستوى الرسمي في عهد السلطان محمود الثاني، وعم استعمال الطربوش بين أفراد الهيئة الحاكمة، إذ يذكر القاسمي في حوادث سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م أن والي دمشق عبد الرؤوف باشا خرج مسافراً بموكب الحج وهو يلبس الطربوش بغير عمامة^(٢).

وكان الزي بشكل عام مكوناً من عدد من الثياب منها ما يلبس على الجذع أو على الرأس، أو على الوسط والساقين والقدمين، ومنها ما يلبس فوقها جميعاً. وشذ عن ذلك في بعض التفاصيل زي النظام الجديد، وجنود المدفعية والقاباشية الذين صممت لهم أزياءهم بحيث لا تعيق حركتهم أثناء العمل، فهناك القميص المصنوع من الحرير أو الكتان أو القطن، وفوق القميص القنبراز وهو بأكمام واسعة ويصل إلى الركبتين، ويأتي فوقه الضولمان وهو مفتوح من الأمام لتظهر من تحته الصدرية بأزرار خاصة. وكانت الصدرية مستخدمة لدى الحكام والمحكومين، إلا أن الحكام والأغنياء صنعوها من الأقمشة الثمينة^(٣).

وتبدل زي الباشوات في عهد السلطان محمود الثاني، فقد أدخل بعض الأزياء الأوروبية إلى الهيئة الحاكمة، وبدأ بنفسه عندما خلع زيه التقليدي وارتدى زي ملك أوروبي، وقام بتقصير لحيته، ولبس على رأسه القبعة الغربية والسترة الرجالية والبنطلون. أما زي الدفتردار فكان مكوناً من الثياب السابقة إلا أن جبته امتازت بلونها الأحمر، المطوقة الحواف بفراء بني، وتعمم بعمامة سوداء لها شاش أبيض. وكان زي آغا الانكشارية لا يختلف عن أزياء الهيئة الحاكمة

(١) حمامي، حسن، الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية، ص ٢٩١-٢٩٣.

(٢) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ٢، ص ٣٧٧.

(٣) العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص ٣١.

إلا بكر أخضر في وسطه دون زنار، وتبرز الصدرية البيضاء أعلى جذعه، ويعتبر عمامة ضيقة من أسفلها ومتسعة من أعلاها. أما جيبته فكانت زيتية اللون خالية من الفراء. وتميز شيخ الإسلام عن غيره بالجبة البيضاء المصنوعة من الجوخ. أما نقيب الأشراف فلبس زياً مشابهاً لزي شيخ الإسلام إلا أنه يختلف عنه بلون جيبته التي كانت فاتحة اللون، وبالشاش الأخضر على العمامة التي كان يعتمرها^(١).

أزياء العامة:

اتفق زي الرجال مع زي النساء في جوانب عديدة مثل التزيين والزر كشة، وفي تسمياته والإسراف في أبعاده، وكان الاختلاف بسيطاً. وقد كان العامة ميالين إلى ارتداء الثياب ذات الألوان الناصعة كالأحمر والوردي والبنفسجي حتى عام ١٨٤٧م، حيث هجر أبناء الفئات العليا الثياب متعددة الألوان، ولبسوا الجوخ الأسود والأزرق والكستائي، في حين استمرت فئات العامة باقتناء الثياب من الألوان السابقة الذكر^(٢).

وبدخول البضائع الأوروبية إلى الولاية - وبخاصة دمشق - بدأ العديد من أبنائها يعزفون عن الأقمشة المصنوعة محلياً أو المستوردة من الشرق، لتحل محلها الأقمشة الإنجليزية نظراً لرخص أسعارها إذا ما قورنت بأسعار الكشمير.

وتنوع لباس الرأس عند العامة، وكان القاوق* أساس لباس الرأس^(٣)، وهناك أيضاً الطاقية، وهي لباس الرجل الشعبي سواء في المدينة أم في الريف، وتكون ذات شكل مستدير نصف كروي، وتصنع من القطن الأبيض أو من الحرير الملون المنسوج يدوياً. وقد تكون ذات شكل مخروطي تنتهي من الأعلى بشاشة مستديرة، وتلف حولها قطعة من الشاش الأبيض^(٤). وكان هناك الطربوش الذي يشبه عمة تلتف حول طاقية حمراء من الجوخ، مسطحة من

(١) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٣٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٦٨.

* القاوق: قلنسوة تلبس على الرأس يفصلها صانعها من جوخ، ويطلق عليه القاوقجي.

(٣) القاسمي، قاموس الصناعات، ج ٢، ص ٣٧٣.

(٤) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٢٨٦-٢٨٧؛ العلاف، دمشق، ص ٢٦.

الأعلى، وتطوى بشكل مثلي، وتظهر ثباتها من أعلى الرأس، وتتطلق من وسطها شرابة غليظة زرقاء تتدلى حتى العنق. وهذا ما عرف في سورية بالطربوش العباسي^(١).

أما فيما يتعلق بالنساء فقد بقيت المرأة السورية حتى الربع الأول من القرن العشرين تعصب رأسها داخل بيتها بعصبة خاصة تسمى قمطة*، وكانت المرأة تغطي كامل رأسها ثم تعصب بالباقي جبينها وتعتقه من الأمام بصورة ظاهرة. أما العروس أو السيدة الغنية فكانت تزيد عليه بأن تلقي فوقه منديلاً أبيض مستطيلاً يسمى غطاء، ويكون أحياناً مطعماً بخيوط من الفضة^(٢).

وكانت نساء الطبقة العالية يلبسن الطواقي (طراوير) من المعدن يبلغ طول الواحدة أكثر من ١٠ سم، وتغطي بقطعة كبيرة من القماش تتسدل على الكتفين^(٣)، وكلما علا شأن المرأة فلي قومها طال طنطورها وغلا ثمنه. وقد لبسته المرأة في المدن والأرياف. وكان على الخادمة أن ترفع يديها إلى رأس الطنطور لتسدل عليه البرقع الشفاف فيغطي وجه سيدتها^(٤). وكانت بعض النساء يغطين وجوههن بالمناديل وعلى رؤوسهن الإزار الطويل^(٥).

أما ملابس الجسم فكانت تصنع في الغالب من الأقمشة المحلية^(٦)، وكان الرجال يلبسون القنباز، وهو ثوب طويل يصل إلى مشط القدم مفتوح من الأمام وعريض من الأسفل ثم يضيق تدريجياً حتى الأعلى، ويردف الطرف الأيمن فوق الأيسر ويغلق عند العنق بزرّ ظاهر، وله كمان ضيقان يتسعان عند راحة الكف^(٧).

(١) عبد الحمين بك، القول الحق في بيروت ودمشق، ص ٧٦؛ غرايبة، سورية، ص ١٣٨؛ كرد علي، لباس الرأس، المقتطف، م ٢٩، ج ١، ك ٢، ١٩٠٤ م، ص ٢٠٤.

* القمطة: عبارة عن منديل رقيق وشفاف مربع الشكل ذي ألوان مختلفة طبعت عليه رسوم من السورود والزهور، وفي أطرافه أنواع مختلفة من الخرز الزجاجي الملون يتدلى على جبين المرأة فيغطي وجهها.

(٢) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٣٢٣.

(٣) غرايبة، سورية، ص ٣٨.

(٤) فتوح، عيسى، تطور الأزياء النسائية في سورية ولبنان من القرن ١٦-١٩، مجلة التراث الشعبي، العدد ٥، السنة ١١، ص ٣٢؛ جرجي بني، تاريخ سورية، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٥) القاياتي، نغمة البشام في رحلة البسام، ص ١٤٨.

(٦) الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٦٧.

(٧) حمامي، مصدر سابق، ص ٢٧٢.

واستخدم الزنار الذي غالباً ما يكون من الحرير المقلم في الصيف، وقد يكون من الجلد العريض أو الضيق، وله إيزيم مستطيل الشكل أو مربع^(١).

وكانت المرأة ترتدي الثوب المصنوع من الحرير، وهو يصل إلى القدمين، ويكون بأكماء عريضة عند الطرفين، له فتحة من الأمام، وفتحتان جانبيتان، ولم مطرقات من الحرير على الصدر. وهناك القزمية^(٢)، والتلي^(٣)، والليك^(٤)، والمزيون (المدربية)^(٥)، وإيضاً هناك السروالة وكانت ترتديها تحت ثيابها وتثبتها على وسطها، وتزم وتثبت على الكاحلين. وهناك أيضاً القنبار. وكانت المرأة تضم ثيابها مع السروالة إلى جسدها بالزنار^(٦).

وقد طرأ بعد عام ١٨٦٠ تغيير جذري على لباس المرأة، حيث تأثرت وخاصة المرأة الذمية بالأزياء الأوروبية. ولكن هذا اللباس اقتصر على الثريات فقط^(٧).

وقد استخدم المرأة أدوات متعددة للزينة، فزينت رأسها بأنواع منها ما يسمى بالمشط، ومنها البرش والقمر، وتكون جميعها مرصعة بالأحجار الكريمة^(٨). ولبشت المرأة العرجة (الشكة) وهي عبارة عن مجموعة من الليرات الذهبية العثمانية الرشادية أو الإنجليزية يصنع لها عروة ذهبية تثبت على عصاية مستديرة تضعها المرأة تحت العصابة على نحو تظهر فيه الليرات الذهبية، ويتدلى من خلف العصابة حزام مهذب مزين بقطع مستديرة من الفضة^(٩).

واستخدمت أشكال متعددة لزينة الصدر منها القلب، وحبّة الفراشة، والغزال، وتصنع أيضاً من الذهب والأحجار الكريمة. أما الخواتم فغالبيتها من الذهب يركب على فص كبير من الماس والياقوت والزمرد. وأما زينة الأذان فكانت ذات أشكال متعددة منها ما يسمى قرط كف،

(١) موسى، علي، حرب، محمد، محافظة حماه، ص ١٦٤-١٦٥.

(٢) القزمية: ثوب قمائمه حرير القز، وصباغه دقيق قشور الرمان المغلي بحيث يعطي اللون الخمري.

(٣) التلي: القماش الحريري الأسود المفرغ بخيوط متشابكة.

(٤) الليك: ثوب طويل حتى القدمين ضيق من الأعلى وعريض من الأسفل.

(٥) المدربية: ثوب يصل تحت الركبتين مفتوح من الأمام ويحزم من وسطه بشرائط، ويكون خفيفاً فضفاضاً من الحرير المبرقش والجوخ المخملي.

(٦) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٣١٥-٣١٨؛ موسى، محافظة حماه، ص ١٦٤-١٦٥.

(٧) غرايبة، سورية، ص ١٣٨-١٣٩.

(٨) كرد علي، الخطط، ج ٤، ص ٢٢٥.

(٩) سعاد الحديدي، صور من حياة المرأة العربية، ص ١٥٢.

وعصافير تركي^(١). وزينت بعضهن أذنيها بحلق من الماس، والبعض الآخر بحلق مسن اللؤلؤ المحلي بالذهب^(٢).

وزينت المرأة ساقها بالخلخال، وكان من الذهب أو الفضة^(٣)، وزينت عنقها بارتداء قلادة من الخرز الملون^(٤). واستخدمت بعض النساء (الكسماية)، وهي عبارة عن مرآة صغيرة مثبتة بشكل عمودي من جانبيها بعمودين من الخشب مطعمين ومحفورين بشكل جميل، ومثبتين بقاعدة خشبية تحتها درج صغير لتضع فيه أدوات الزينة^(٥).

المأكّل والمشرب:

تتوّعت أصناف الطعام والشراب لدى المجتمع المدني في ولاية سورية خلال فترة الدراسة، وتعددت أدواتهما، واختلفت عاداتهما حسب الطبقات الاجتماعية، فقد كان الرجال من الهيئة الحاكمة يتناولون طعامهم في الغالب منفصلين عن النساء والأطفال، في حين كان العامة يتناولون وجبات الطعام مع أسرهم^(٦).

وكانت العادة أن توضع أطباق الطعام على قماش دائري، يبسط في وسط القاعة فوق السجاد أو البسط، وتوضع الأطباق فوق وعاء من النحاس (صدر)، أو فوق طاولة قصيرة القوائم بارتفاع ١٥ بوصة عن الأرض، ويطلق عليها اسم (اسكملت)، وتكون الأطباق من الصيني أو الفضة لدى الأغنياء، أو النحاس المطلي بالقصدير عند العامة. وتحتوي على أصناف متنوعة من الطعام كالبقول والسلطات ولحم (الرسن) والكعك الأبيض والخبز. أما الملاحق فكانت مصنوعة من الخشب (الخشوقة) وهي مكورة كترس السلحفاة الأجوف. ولم يستخدموا السكاكين أو الشوك في طعامهم^(٧).

(١) كرد علي، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٢) سجل رقم ٩٥٩، ص ١١٩.

(٣) نعيسه، أوضاع الفلاحين، ص ٧٤.

(٤) الحريري، المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٥) حسن آغا العبد، تاريخ حسن آغا العبد، ص ٣١.

(٦) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٥٢٠.

(٧) عبد الرحمن بك، القول الحق في بيروت ودمشق، ص ٨٦-٨٧.

وتعددت أصناف الأباريق التي كانت تملأ بالماء وتوضع إلى جانب المائدة. فكانت لدى الأغنياء والخاصة مصنوعة من الفضة، ولدى العامة مصنوعة من النحاس أو الفخار. وإلى جانب المائدة كان يوضع (طشت) لغسل الأيدي وذلك عند استضافة الآخرين^(١). وكان الدماشقة كثيراً ما يعدون الولائم للأصدقاء والأقرباء، ويدعون بعض المغنين والمطربين للترويح عن ضيوفهم، وكان خوان* الطعام يمد بعد الحديث أو الغناء الممتع، ويوضع عليه الطعام حيث تصف أوانيه بإتقان، وتوضع في أوعية أخرى الحلوى والفواكه لتناولها بعد الطعام، وغالباً ما كانوا يدخنون (الأرجيلة) بعد الغذاء^(٢)، ويشربون القهوة التي تصادف وصولها وانتشارها في دمشق مع دخول بلاد الشام ضمن إطار الدولة العثمانية. وكان الضيوف يستمرون في السهر إن كانت الوليمة ليلاً، أما إذا كانت نهاراً فإنهم يعودون إلى بيوتهم بعد انتهائها^(٣).

وإذا كان المضيف يهودياً فإن النساء يجلسن مع الرجال إلى مائدة واحدة، في حين لم يحدث ذلك لدى الأسر الإسلامية لأسباب شرعية، وكانت العادة قبل التجمع حول المائدة خلع بعض الثياب الخارجية ذات الأكمام العريضة التي تعيق تناول الطعام^(٤).

وتأتي صحائف الأكل مغطاة في بعض الأحيان، وتوضع تباعاً على المائدة، وقد يصل عددها في بعض الولائم لدى الأغنياء إلى ثلاثين طبقاً، وغالباً ما يكون الصحن الأول من الحساء (الشوربة)، والصحن الآخر من الأرز أو اللحم أو التوابل، وما بينهما أنواع عديدة من المأكولات. وكانوا مغرمين بأكل لحم الضأن مشوياً أو مطبوخاً، سواء مع الخضروات أم البقول أم مع العجين^(٥).

وتسربت في فترة الدراسة بعض المأكولات التركية إلى المطبخ الشامي، بالإضافة إلى تسرب أطباق أخرى تعود في أصولها إلى غير الأتراك، مثل المأكولات الفارسية والهندية

(١) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٥٢٠.

* الخوان: صدر (وعاء) كبير قطره متر ونصف يوضع على كرسي بارتفاع ذراع، ثم يصف الطعام عليه.

(٢) الأرناؤوط، محمد، بدايات انتشار القهوة والمقاهي في بلاد الشام الجنوبية، مجلة اليرموك، العدد ٣٥، السنة ١٩٩٢، ص ٣١؛ الفارس دارفيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ص ٧٦-٧٧.

(٣) الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٨٠.

(٤) مسعود، قاسم، البيوت العربية في مدينة دمشق في العهد العثماني، ر.ح، ص ١٨١.

(٥) نعيسه، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢٠.

والكردية والمغربية. وقد دخلت المطبخ الدمشقي بتأثير أبناء بعض الجنسيات الذين اختلطوا مع المجتمع الدمشقي لسبب أو لآخر.

كما أن الهيئة الحاكمة كانت كثيراً ما تستضيف شخصيات تركية مهمة، وتحاول أن ترضي أذواقها بإدخال تلك المأكولات إلى المطبخ الدمشقي^(١).

العادات والتقاليد:

ساد في مختلف مناطق الولاية عادات مختلفة كاحتفالات الأعياد والحج واحتفالات الولادة والختان وغيرها. وفيما يلي تفصيل لها:

١. احتفالات الحج:

يتم الاحتفال بالحج حين الرجوع من الحج، حيث يقدم الحاج الهدايا لأقربائه وجيرانه فيما يأتون لزيارته، ويتم ختم هذه الزيارات بإقامة حفلة تدعى (المولد) وهي عبارة عن اجتماع يضم أقرباءه وزملاءه في داره ويختمونه بقراءة القرآن ونشد بعض قصائد مديح الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢).

٢. الختان:

ويتم عادة ما بين سن الثالثة إلى السادسة، والاحتفال به يشبه الاحتفال بالأعراس من حيث الدبكات والرقصات، ويقوم الاحتفال لمدة ثلاثة أيام، يتم في اليوم الأول نصب الرايات - وهي قطعة من القماش الأبيض يكتب عليها تعويذة أو دعاء - واليوم الثاني للظهور، وتوزع فيه الحلوى على الحاضرين، واليوم الثالث هو يوم الختام^(٣)، وخلال الاحتفال يطاف بالطفل أكثر أنحاء القرية، وتوزع الهدايا المختلفة^(٤).

وفي حفلة الختان يُهدى إلى صاحب الحفلة من أهله وأصدقائه السمن والأرز والغنم والقهوة وكل ما يحتاجه للحفلة، وتكون بمثابة دين عليه، ويجب سداؤه حين إقامة حفلة مثلاًها.

(١) الزواهرية، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٨١.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٢، ص ٢٧٤.

(٣) الحديدي، صور من حياة المرأة العربية في درعا، مجلة العمران، م ٥، ص ٢٠٦.

(٤) عبد الحميد، العادات الاجتماعية، التراث الشعبي، مجلد ١، ص ١٠٦.

وتختتم الحفلة بتلاوة المولد^(١). ويلبس الطفل ثوباً حريراً أبيض اللون عريضاً دون أي لباس داخلي، وتعلق في عنقه صرة من الكمون لئلا تؤثر فيه الروائح المختلفة، وترسم على جبينه نقطة زرقاء لمنع العين الحاسدة^(٢).

٣. الاحتفال بقدوم الطفل:

كان يحتفل بقدوم الطفل بالطبل والزمر وتجهيز الولائم وتوزيع الحلويات ودعوة الأهل والأصدقاء^(٣).

٤. عادة النقش على الأيدي:

كانت هذه العادة منتشرة وخاصة في دمشق، حيث تنقش أيدي العروس وأرجلها قبل يوم الزفاف، وينقش بعدها من يرغب من أهلها، ويقتصر ذلك على الأيدي فقط، وكان هناك من النساء والأولاد من ينقش في الأعياد وعند ختان الأولاد^(٤)، وكانت النساء ينقشن أيديهن بالحناء احتفالاً بقدوم رجب ويشاركن بذلك أحياناً الأطفال والرجال^(٥).

٥. عاداتهم في المآتم:

بعد وفاة الشخص يقوم أصدقاؤه وأقرباؤه بغسله ثم يقومون بتشييع جنازته للصلاة عليه وهم يذكرون اسم الله، وحين رجوعهم يذهبون إلى أسرته للعزاء، وبعد العشاء يستمعون للقرآن ويوزعون على الفقراء والمحتاجين بعض الدراهم والطعام من ثروة المتوفي لنيل الأجر له، وتبلغ مدة العزاء عندهم سبعة أيام^(٦).

وأهم عاداتهم في المآتم ما يسمى بالتهليلة، وهي قراءة القرآن والأذكار بعد وفاة المتوفي، وتكون إما في الليلة الثالثة أو ليلة أول خميس بعد وفاته، أو ليلة الأربعاء، أو ليلة تمام السنة، أو ليلة زوال عدة زوجته^(٧).

(١) كرد علي، الخطط، ج ٢، ص ٢٧٥.

(٢) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٩٧-٩٨.

(٣) الصباغ، المجتمع العربي السوري، ص ١٥٦.

(٤) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ٢، ص ٤٨٧.

(٥) نعيسة، أوضاع الفلاحين، مجلة دراسات تاريخية، ص ٧٦.

(٦) كرد علي، الخطط، ج ٦، ص ٢٧٦. وانظر أيضاً: عبد الحميد، العادات والتقاليد الاجتماعية، مجلة العمران،

ص ١٠٧.

(٧) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ٢، ص ٢٢٢.

الأوضاع الصحية:

لم تكن ولاية سورية خلال فترة الدراسة خالية من الأمراض والأوبئة، فقد أدت عوامل مختلفة إلى انتشار أنواع منها. وعلى الرغم من وجود الأطباء والصيدلة والمستشفيات في مدن الولاية إلا أن ذلك لم يحل دون فتكها بكثيرين.

وقد نص الدستور العثماني على مسؤولية البلديات عن نظافة المدينة وعلى نظافة الأفران وعدم بيع لحوم الحيوانات المريضة ومنع بيع الأشياء الضارة بالصحة من مأكولات، وكذلك نص على تفتيش الصيدليات وترتيب بيوت الصحة للفقراء^(١).

وقد عين الأطباء من قبل الدولة في البلديات يكون لهم عدة وظائف منها معاينة المرضى مرتين في الأسبوع مجاناً في مكان تعينه البلدية، وكان عليه أيضاً التوجه إلى بيوت المرضى الذين لا يستطيعون القدوم إليه، وكذلك كان مسؤولاً عن الكشف عن أسباب منشأ الأمراض التي تظهر في الولايات، وتعين الإجراءات الصحية اللازمة لإزالتها^(٢).

وقد تأثرت الحياة الصحية في الولاية، وبخاصة في دمشق بطبيعة تكوينها السهلي، وكثرة مياهها التي أدت إلى تكون البرك، وقد أدت هذه البرك إلى انتشار مرض حمى التيفوئيد والبرداء. ولم يعن الولاة - وكانت الشؤون الصحية من اختصاصهم^(٣) - عناية كبيرة بالأوضاع الصحية، فالأهالي كانوا يقذفون بالقاذورات في نهر بردى دونما رادع^(٤)، وكثيراً ما كانت مياه النهر تتلوث، وتؤدي إلى تفشي الأمراض ونقلها إلى السكان عن طريق ثمار بساتينهم التي تروى من مياه النهر.

(١) الدستور، م ٢، ص ٣٩٦.

(٢) الدستور، م ٢، ص ٤٠٠.

(٣) زواهرة، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٨١.

(٤) المرجع السابق، ص ٨١.

وفي سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م تعرضت دمشق للهواء الأصفر (الكوليرا) الذي أهلك نحو عشرة آلاف نفس، وتعرضت له مرة أخرى بعد سنة ١٣١٩هـ/١٩٠٢م حيث بقي نحو تسنتين يفتك فتكاً ذريعاً بالسكان بحكم اقتصارهم على شرب ماء الأنهار^(١)، وانتشر هذا المرض أيضاً بين الجندرمة وأدى إلى وفاة اثنين أصيبا به^(٢).

ومن الأمراض الأخرى المنتشرة مرض الجدري، فقد ذكرت جريدة البشير أن ٥٠ شخصاً قد أماتهم الجدري في قرية جنب في حوران^(٣)، وفي دمشق وقعت ١١٣ إصابة ومات أحد المصابين^(٤). وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المرض أخذ يتناقص يوماً بعد يوم على أثر التدابير الصحية التي اتخذتها الحكومة في الولاية^(٥). وكانت حوادث الجدري محصورة في الأماكن التي يهمل فيها التطعيم^(٦)، وقد قامت الحكومة بمكافحة هذا المرض فعينت موظفين قاموا بتطعيم الأهالي بلا مقابل، وأسست داراً لتوفير المضل في مستشفى دمشق بلا مقابل أيضاً^(٧).

وانتشر في الولاية مرض وبائي خلال الفترة ما بين ٣١ كانون الثاني ١٩٠٢م حتى نهاية شباط ١٩٠٢م أدى إلى ٢٥٠ إصابة، و٢٠٤ وفيات، بالإضافة إلى ٢٥ إصابة و٣٢ حالة وفاة بين العسكر الشاهاني، وإصابة واحدة في السجن^(٨).

* الهواء الأصفر: يبدأ على نوعين: الأول فجأة، والثاني بعد تعب عام وإسهال بلا ألم يدوم من يوم واحد لعشرة أيام أم أكثر، وغالباً ما يكون هجوم المرض مدة الليل أو في الصباح الباكر، وأعراضه الأولى إسهال مائي غزير وقيء مواد ملونة، ثم سائل أبيض بلا رائحة، ويصحب ذلك تشنج وألم في الساقين والفخذين وعضلات البطن وعطش شديد وحرقة في المعدة، وضعف النبض وقلة البول ثم انقطاعه، ثم تغور العينان ويبيض الصوت ويزرق الجلد، وهذه الأعراض منذرة بالموت إلا إذا انقطع الإسهال والقيء ورجع النقيض إلى وضعه الطبيعي. لمزيد من المعلومات انظر: يوحنا وريعات، الأوبئة والأمراض الغالبة على سورية، المقتطف، م ٣، ج ٤، ص ٢٨٠.

(١) مبانو، أحمد عثمان، دمشق في دوائر المعارف، ص ١٣٧، المقتبس، العدد ٢١٥ ك ١، ١٩٠٨م، ص ٤؛ البشير، العدد ١٠٧٨، ٢٥ آب ١٨٩١م، ص ٢.

(٢) البشير، العدد ١٠٨٧، ٢٨ تشرين أول ١٨٩١م، ص ٣.

(٣) البشير، العدد ٩٢٣، ١٦ أيار ١٨٨٨م، ص ٣.

(٤) البشير، العدد ١٤٦٨، ١٦ ك ٢، ١٨٩٩م، ص ٣.

(٥) البشير، العدد ١٣٧٠، ٣٠ ك ٢، ١٨٩٩م، ص ٢.

(٦) يوحنا، الأوبئة والأمراض الغالبة على سورية، المقتطف، م ٣، ج ٤، ص ٢٨٤.

(٧) البشير، العدد ١٥٨١، ١٦ شباط ١٩٠٣م، ص ٢.

(٨) البشير، العدد ١٥٨١، ١٦ شباط ١٩٠٣م، ص ٢.

وهناك أيضا حمى التيفوئيد التي كانت مستوطنة أكثر مما هي وافدة، وكانت أحيانا تتخذ طورا شديدا، وتنتشر انتشارا مخيفا، وهي كالكوليرا تدخل جراثيمها الأمعاء وتخرج منها، فإذا تلوث بها ماء وشربه الناس انتقلت إليهم^(١).

وانتشر أيضا الطاعون والجذام والحمى الملارية^(٢)، وكان السرطان نادر الحدوث في هذه البلاد، فيبدو أن معيشة السكان في الفلا وبساطة مأكلاتهم كانت تقاوم هذا المرض. وقد وجد أن أفضل علاج مسكن له هو استعمال المورفين على الجلد^(٣).

وذكرت سالنامة ولاية سورية بعض الأمراض السارية مثل الديزنتاريا التي ظهرت لأول مرة في الولاية في تشرين الأول ١٨٥٠م، بالإضافة إلى النزلة الصدرية والخنق والطحال^(٤)، وكذلك انتشرت أمراض الحمى المعوية والحمى العادية والإسهال^(٥).

داء السل: وهذا الداء قليل الانتشار في سورية، ولم يكن معروفا في البلاد، إلا أنه منذ عهد قريب أخذ يتفشى سريعا ويفتلك بالسكان^(٦). وكان المصابون به ينصحون بالبقاء في الهواء الطلق العليل^(٧).

ولم تخل ولاية سورية من الأطباء، وكانوا من أصول محلية، وقد يورث الأب مهنة الطب لابنه، وقد اعتبر الحصني الأطباء من الأعيان، وترجم لأطباء مسلمين ونصارى مثل عبد القادر الحلبي والدمشقي^(٨). ومن الأطباء المسلمين من أخذ الطب من الآباء والكتب الموجودة لديهم، حيث لم يكن هناك طبيب بالمعنى العلمي. ولم يكن في دمشق سوى أربعة أو خمسة أطباء وكحال واحد. ولم يكن هناك طبيب جراح لأن الجراحة وطب الأسنان والعيون كانت

(١) يوحنا، الأوبئة والأمراض الغالبة على سورية، ص ٢٨١؛ البشير، العدد ١٢٥٢، ١٢٩، ١٨٩٦م، ص ٢.

(٢) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ١٤٠.

(٣) جريدة سورية، العدد ٩١٤، ٢٣ رجب ١٣٩٠هـ، ص ١.

(٤) سالنامة ولاية سورية، سنة ١٣٠٢هـ، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٥) البشير، العدد ١١٨٨، ٣ تموز ١٨٩٥م، ص ٣؛ والعدد ١٠٩١، ٢ ك ٢، ١٨٩١م، ص ٢.

(٦) حبيب أفندي، داء السل وانتشاره في سورية، المشرق، العدد ٢، ١٥ ك ٢، ١٨٩٨م، ص ١١٩-١٢٣.

(٧) طرابلس، العدد ١٣٤، ١١ أيلول ١٨٩٥م، ص ٤.

(٨) الحصني، المنتخبات، ج ٢، ص ٦٦٣.

داخلة في اختصاص الكحالين^(١). ومما استخدمه بعض الأطباء في العلاج الرقي والحجب والتعاويد وقراءة بعض الآيات القرآنية، وأكثر ما كان يغالج بذلك مرض الصرع والجنون^(٢).

وهناك من الأطباء من حصلوا على العلوم الطبية في استنبول، ومنهم عبد القادر زهر وعيادته في سوق ساروجه، والدكتور مصطفى شوقي، والدكتور إبراهيم الساطي وهو اختصاصي بالتوليد^(٣)، وممدوح بك أستاذ الأمراض النسائية في المكتب الطبي الشاهاني^(٤). وقد قامت بعض النسوة بتوليد النساء كقبالات واكتسبن الخبرة بالتمرين^(٥). ويذكر القاسمي أنه عاصر امرأة في دمشق تدوي القرع لدى الأطفال مستخدمة المراهم والزيوت العقاقيرية^(٦).

أما الصيدلة فكانت معدومة في الولاية ومنحصرة في حوانيت العطارين، وأشهرهم برو العطار (إبراهيم العطار). وأقدم صيدلية عرفتها دمشق: صيدلية (سليم فارس) في سوق البرورية. ولم تكن هناك صيدليات بالمعنى المعروف اليوم، وكان الأطباء أنفسهم يعطون الدواء من عندهم، وإذا احتاجوا إلى دواء غريب أمروا ذوي المريض أن يشتروا الدواء من صيدلية (سليم فارس). وأكثر الأدوية كانت تؤخذ من العطارين، ومنها: شرش الإنجيل، وجوزة الطيب، والقرفة وغيرها^(٧).

وكان هناك نوعان من بائعي الأدوية أولهما الصيدلي، وهو الذي يبيع العلاجات كالأعشاب والزهورات، وظلت هذه الحرفة في غاية الرواج حتى ظهور (الأجزخانة) فأصابها الكساد، والأجزخاني هو الصيدلي الذي يقدم العلاج على الطريقة الغربية^(٨). وفي عام ١٨٩٢م أنشئت في دمشق صيدلية تفتح ليلاً ونهاراً جمعت كثيراً من الأدوية والعقاقير^(٩).

(١) العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص ١٣٨.

(٢) الشطي، الروض، ص ٢٤٦.

(٣) حسن، حديث دمشق (١٨٨٤-١٩٨٣م)، ص ٦٧؛ البشير، العدد ١٤٤٥، ١٦ تموز ١٩١٠م، ص ٣.

(٤) البشير، العدد ١٦٤٦، ٢٦ تشرين أول، ١٩٠٣، ص ٢.

(٥) نعيمه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ١٤٤.

(٦) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ٢، ص ٤٦١.

(٧) العلاف، المرجع السابق، ص ١٣٩-١٤٠.

(٨) القاسمي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٩) البشير، العدد ١٠٤٢، ١٣ أيلول ١٨٩٢، ص ٣.

وقد صدر أمر بفتح الصيدليات للصيادلة الحائزين على شهادات رسمية^(١)، وكان الدكتور توفيق أرمين ملكيان يملك مستوصفاً للعلاج بالكهرباء^(٢).

وأما المستشفيات فقد انتشر عدد منها في محلة القصاع، وقد بنت الإرساليات التبشيرية مستشفياتين أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي بعد عام ١٨٦٤م^(٣). ومن المستشفيات الوطنية مستشفى الغرباء^(٤). بالإضافة إلى مستشفى الحميدي^(٥). وأنشئ مستشفى لعلاج المصابين بداء الكلب^(٦)، وآخر لعلاج المجانين^(٧).

(١) البشير، العدد ١٨٥٨، ٢٤ شباط ١٨٨٧، ص ٣.

(٢) القبس، العدد ٢٨، ٢١، ١٩١٣م، ص ٣.

(٣) زواهرة، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٨٣.

(٤) سبانو، دمشق، ص ١٣٧؛ البشير، العدد ١١٩٥، ١٨ أيلول ١٨٩٥م، ص ٢؛ البشير، العدد ١٣٩٦، ١٥ آب

١٨٩٩م، ص ٣؛ المفيد، العدد ٣٩٨، ٢٤ أيار ١٩١٠م، ص ٣.

(٥) البشير، العدد ١٨١٣، ٨ تموز ١٩٠٧م، ص ٢.

(٦) البشير، العدد ١١٢٧، ٣٠ أيار ١٨٩٤م، ص ٣.

(٧) البشير، العدد ١٣٨٦، ٢٠ أيار ١٨٩٩م، ص ٣.

حالة الأمن في الولاية:

قامت الولاية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمحاولات جادة لإرساء دعائم الأمن والنظام، وفرض سيادة القانون، إلا أن هذه المحاولات كانت تصطدم بصعوبات رئيسية أهمها^(١):

١. عدم وجود قوات أمن كافية وراذعة، تفرض هيبة الدولة وسيادتها.
٢. رفض بعض طوائف السكان وخاصة العصابات الإقطاعية محاولات الإدارة العثمانية إدخال التنظيمات والإصلاحات إلى مناطقهم، لاعتقادهم أن الدولة تهدف من هذه التنظيمات تفويض استقلالهم، مما اضطر الدولة إزاء حركات الطغيان والتمرد إلى تجريد حملات عسكرية لتأديب المتمردين والقضاء على ثوراتهم، ومن أبرز الخلافات تلك التي كانت قائمة بين مشير الجيش الخامس ووالي سورية، إذ كان مشير الجيش يتعمد أحياناً عدم الاستجابة لطلب الوالي سوق العسكر إلى مناطق العصيان، لكي يربك الوالي ويظهره بمظهر العاجز الذي لا يستطيع إدارة الولاية.

ومن أبرز الثورات التي قامت في تلك الفترة، ثورة الدروز التي بدأت بين الدروز والموارنة في لبنان، واستفحل أمرها أيام بشير الشهابي حيث وقعت مذبة أصابت المسيحيين في دمشق سنة ١٨٦٠م^(٢). وقيل في أسباب الفتنة أن أحمد باشا والي الشام اتفق مع خورشيد باشا والي صيدا وبيروت على أن يقتل المسلمون في بلاد سوريا النصارى، فيقوم حينئذ المسلمون في البلاد الأخرى ويقتلون نصارى بلادهم، وتصير ديانة واحدة في المملكة العثمانية^(٣).

(١) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٦١.

(٢) سبانو، دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، ص ١١١؛ مدحت باشا، المذكرات، ص ٤٢.

(٣) فرحان، نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام (١٨٤٠-١٨٦٢م)؛ المشرق، العدد ١٠، ١٩٢٦م، ص ٩١٥-٩١٦.

وكانت تقع بعض الخصومات بين الأكراد والدروز، وكانت تنتهي غالباً بالصلح بين الطرفين^(١). وجرت سنة ١٣٢٧هـ/١٩١٠م معركة في حوران بين العساكر والدروز^(٢) تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة^(٣)، ثم انتقل الدروز إلى مكان آخر وسارت الجنود في أثرهم^(٤).

وقد سجلت سالنامة ولاية سورية لسنة ١٢٩٧-١٢٩٨هـ، الحوادث التالية^(٥): ١٠٧ حوادث قتل، ٢٨ سرقة، ١٦ حادثة غصب، ٤ حوادث إسقاط جنين، ٢٦ حادثة فعل شنيع، ٢٠ حادثة إزالة بكاره.

وفي سنة ١٣٠٠-١٣٠٢هـ سجلت ما يلي^(٦): ٢٢٦ جريمة قتل، ٧٧٨ حادثة سرقة، ٢٠ حادثة إسقاط جنين، ١٧٣٧ حادثة جرح وضرب، ١٥٨ حادثة فعل شنيع، ٤٩ حادثة إزالة بكاره.

وفي عام ١٩٠٨ وصلت البرقيات لمكاتب حكومة دمشق لتضع حداً لحانات الخمر في وقت معين من الليل^(٧)، فقد قبض على محمد الكردي مثلاً من محلة سوق ساروجه لأنه كان سكراناً وكان يرتكب أنواع السفاهة في محلة اليهود^(٨).

(١) البشير، العدد ١١٩٨، السنة ٢٦، أ٨، ١٨٩٥، ص ٢؛ البشير، العدد ١٢٦٢، السنة ٢٧، كانون أول، ١٨٩٦م، ص ٢؛ المفيد، العدد ٤٥٠، السنة ٢، ص ٢.

(٢) الهدى، العدد ٢٢٢، السنة ١٣، ٢١ تشرين الثاني، ١٩١٠م، ص ١؛ البيان، العدد ٣٠، السنة ١، آب ١٩١٢م، ص ٦٢٩؛ طرابلس، العدد ١٦٨، السنة ٤، ٧ آب ١٩١٠م، ص ١.

(٣) البيان، العدد ٣١، السنة ١، ١٥ أيلول ١٩١١م، ص ١؛ الهدى، العدد ٢٥٢، ٨ ك ٢، ١٩١٢م، ص ١.

(٤) المفيد، العدد ٤٥٦، ١١ آب ١٩١٠م، ص ٤؛ طرابلس، العدد ١٦٤، ٨ تموز ١٩١٠م، ص ١؛ العصر الجديد، العدد ٦٦، السنة ٢، ٢٦، ١٩٠٩م، ص ١. وللمزيد عن الحملة الحورانية انظر: المفيد، العدد ٤٧٣، ١٢ آب ١٩١٠م، ص ٢؛ المقتبس، العدد ٥٨٠، ٢٢ ك ٢، ١٩١١م، ص ٣؛ المقتبس، العدد ٥٨١، ٢٣ ك ٢، ١٩١١م، ص ١؛ العصر الجديد، العدد ٧٠، ٢٦، ٢٩، ١٩٠٩م، ص ١؛ المفيد، العدد ٤٥٩، ١٤ آب ١٩١٠م، ص ١؛ الاتحاد العثماني، العدد ١٧٠، ١٣ نيسان، ١٩٠٩م، ص ٢؛ الاتحاد العثماني، العدد ١٧٤، ١٧ نيسان ١٩٠٩م، ص ٢؛ طرابلس، العدد ١٦٧، ١٠ آب ١٩١٠م، ص ٢، ٤.

(٥) سالنامة ولاية سورية، ١٢٩٧-١٣٠٠، ص ١٣٠-١٣٥.

(٦) سالنامة ولاية سورية، ١٣٠٠-١٣٠٢، ص ٢٦١-٢٦٥.

(٧) الاتحاد العثماني، العدد ٩٢، السنة ١، ١٣ ك ٢، ١٩٠٩م، ص ١.

(٨) العصر الجديد، العدد ٩٨، السنة ٢، ٢٩، ١٩٠٩م، ص ٣.

وذكرت جريدة سورية أن عدداً من الدعاوى الجزائية التي فصلت وحكم بها، وبلغت الواردة منها (١٥١) جنحة وجناية، منها ٧٥ جنائية، و٧٦ جنحة. أما التي حكم بها قبلت ١٥٠، منها ٧٤ جنائية و٧٦ جنحة^(١).

(١) سورية، العدد ٩٨٠، ٢٧ أيلول، ص ١.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية في الريف

١. الطبقات الاجتماعية في الريف:
 - أ. أصحاب الأراضي (الملاكون)، المزارعون.
 - ب. أصحاب المهن اليدوية البسيطة.
٢. الأمن.
٣. المأكل والمشرب.
٤. الأزياء.
٥. الأسرة.
٦. الأوضاع الصحية.

الحياة الاجتماعية في الريف

تختلف الحياة الاجتماعية في الريف عنها في المدن أو في البادية، وسبب الاختلاف هو طبيعة الحياة في كل منها. فالريفي يلتصق عادة بالأرض، ومنها يستمد أسباب حياته سواء كان ملاكاً أم أجيراً. وقد أدت القوانين العثمانية إلى ظهور طبقة اجتماعية في الريف السوري خلال فترة الدراسة منها ملاك الأراضي والمترمون والمربعون، وهؤلاء جميعاً لهم علاقة مباشرة بالأرض تملكها أو عملاً فيها. والحديث عن الحياة الاجتماعية في الريف لا بد أن يتناول الأراضي وأنواعها وأصحابها من الإقطاعيين، والعاملين فيها من الفلاحين، وطبيعة الحياة التي كان يحياها هؤلاء من حيث ظروف الأمن السائدة بينهم، وأزيائهم، ومأكلهم ومشربهم، ثم الحياة الأسرية في الريف، والأوضاع الصحية والثقافية فيه، وذلك لإعطاء صورة واضحة عن هذه الحياة.

الطبقات الاجتماعية في الريف:

تشكلت في الريف السوري خلال فترة الدراسة عدة طبقات اجتماعية هي: أصحاب الأراضي (الملاكون)، والمربعون، وأصحاب المهن البسيطة.

أصحاب الأراضي (الملاكون):

كانت ملكيات الأراضي متنوعة، فمنها ما هو بيد الدولة وهي الأكثر شيوعاً والأوسع مساحة، ثم تليها ملكيات الأوقاف الخيرية والذرية لدى المسلمين وأهل الذمة. وكانت ملكيات الدولة تابعة للسلطة المركزية في استنبول وتسيطر عليها قوى متسلطة في مقاطعات بلاد الشام، وبالتالي فإن هذه الملكيات كانت في حقيقتها أنواعاً من الإقطاع، هي: إقطاع التملك، إقطاع الاستغلال، الإقطاع الإداري، الهبات والمنح لكبار القادة والموظفين، والإقطاع الشخصي^(١).

وبعد صدور قانون ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م برزت مجموعتان رئيسيتان أفرزتا طبقة ملاك الأراضي وهما: مجموعة أو طبقة الأعيان، حيث عمد أصحاب الإقطاع (السباهي) إلى تحويل

(١) نعيسه، ملكية الأرض والعلاقات الزراعية في بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، ٣٥٤، آذار ١٩٩٠، ص ١٦٢.

أراضيهم إلى أوقاف ليتفادوا مصادرتها وفرض الضرائب عليها، وكان الأعيان الذين ينتمون لأسر الأعيان هم الأوصياء على الأوقاف، وهم الذين يقومون بإدارتها، مما أدى إلى ازدياد قوتهم اقتصادياً وسياسياً من خلال سيطرتهم على نصف الأراضي الزراعية التي تحولت إلى أوقاف^(١).

وقد استغل الأعيان مركزهم في المجلس المسؤول عن مناقصات جباية الضرائب على القرى / المزارع ليحصلوها لأنفسهم ولأقربائهم. وأما أصحاب المراكز المرموقة والتجار فكانوا يحصلون على امتيازات جمع الضرائب بالاعتماد على علاقاتهم الوثيقة بالأعيان فسي المجلس وبكبار الموظفين العثمانيين. وهذه الامتيازات المتزايدة أتاحت للأعيان أن يصبحوا أقوى الفئات سيطرة في الحياة السياسية في وقت لم يكن فيه للعسكريين أي دور في تلك الحياة^(٢).

أما المجموعة الثانية من ملاك الأراضي فهم الملتزمون، وكانت مدة المناقصات على ضريبة المزارع في بداية الأمر سنة واحدة، ثم ما لبثت أن تحولت إلى امتياز مدى الحياة تحت اسم (مالكانة)، وقد مارس العلماء من غير الأعيان نفوذهم الذي يتمتعون به في مجالس الإدارة من أجل الحصول على الامتيازات مدى الحياة، ونجحوا في ذلك. ومن هذه المجموعة أيضاً الوسطاء التجاريون الذين ظهروا في المجتمع بعد أن أصبح الاقتصاد أكثر اعتماداً على التجارة منذ أوائل القرن التاسع عشر. وكانوا يشترون المحاصيل بثلاثي ثمنها ويقرضون الفلاحين أو يقدمون لهم البذار بفوائد كبيرة، وعندما يعجز الفلاحون عن تسديد ديونهم كانوا يضطرون إلى بيع أراضيهم للتجار، وأخذ هؤلاء التجار الجدد يسيطرون أكثر فأكثر على الأراضي التي يمتلكها الأعيان وناقسوها كمقرضين للمال^(٣).

وتعود معظم الأراضي الزراعية إلى أصحاب الوجاهات والثروة، ففي حماه - على سبيل المثال - مائة وأربع وعشرون قرية ثمانون بالمنة منها تعود لأصحاب الوجاهات والباقي يتصرف به الفلاحون ورجال الطبقة المتوسطة. وفي حمص هناك مائة وست وسبعون قرية منها حوالي ثمانون بالمائة للوجهاء، وعشرون بالمائة مشاع بين هؤلاء الوجهاء والفلاحين. وفي حوران هناك حوالي خمسة وتسعون بالمائة من الأرض موزعة بين السكان^(٤).

(١) طعمة، رامز، ملكية الأرض والسلطة السياسية في دمشق (١٨٥٨-١٩٨٥)، مجلة دراسات تاريخية، ع ٤٣، أيلول ١٩٩٢، ص ٢٦٢.

(٢) شليشر، بعض مظاهر الأعيان، المؤتمر الدولي، ج ١، ص ٤٥.

(٣) -Nicola Ziadon, Syria an Lebanon, p237.

(٤) كرد علي، الخطط، ج ٤، ص ١٩٥.

وفي عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م صدر قانون الأراضي العثماني الذي استهدف وضع حد لفوضى الملكية التي سارت في العهد العثماني الأول^(١)، وكان محاولة جادة من الدولة لتنظيم أراضيها والسيطرة عليها.

وبموجب هذا القانون قسمت الأراضي العثمانية إلى خمسة أقسام^(٢):

١. الأراضي المملوكة، وهي التي يتصرف بها صاحبها كيف يشاء، ويتصرف بالمنقولات بالبيع أو الرهن أو الوصية أو التوريث، وقسمت إلى أربعة أقسام هي: ما خصص للسكن على أن لا تزيد المساحة عن ٥٠٠ متر مربع، ثم الأراضي التي كانت أميرية ثم أصبحت ملكا شخصيا، والسلطان هو السلطة الوحيدة التي تملك الأراضي الأميرية بعد دفع قيمتها، وهناك الأراضي العشرية وأراضي الخراج.

٢. الأراضي الأميرية: وهي الأراضي التي تعود رقيبتها لبيت المال، ويعطى حق التصرف بها لمدة غير محدودة لقاء سند طابو، ومن أهم شروط التصرف بالأراضي الأميرية أنها إذا عطلت ثلاث سنوات متتالية عادت للدولة ولا يستطيع المتصرف بها استردادها إلا بعد دفع المثل، وإذا انتقلت الأرض الميري من متصرف لآخر عرفت بالأرض المحولة^(٣).

٣. الأراضي الموقوفة: وهي في الأصل أراض مملوكة أو أميرية أو وقف دخلها كالأعشار، مع بقاء رقيبتها لبيت المال. وقسمت من حيث إدارتها إلى أوقاف مضبوطة وملحقة ومستثناة، ولا يمكن بيعها وإنما يمكن تبديلها بإذن خاص من شيخ الإسلام^(٤).

٤. الأراضي المتروكة: وهي الأراضي القريبة إلى العمران، حيث تترك للأهالي مرعى ومحتصدا ومحتطبا، ولا يمكن التصرف بها فرديا، وإنما تبقى للعموم، وتقسّم إلى نوعين: الأول ما لا يجوز تملكه مثل الطرق العام، والثاني ما هو ملكية جماعية للأرض^(٥).

(١) خوري، طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق (١٨٦٠-١٩٠٨)، ص ٢.

(٢) دعيس، قانون الأراضي العثمانية، ص ٨-٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢-١٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ١١.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٨.

٥. الأراضي الموات: وهي الأراضي الخالية والبعيدة عن العمران نحو ميل ونصف، ويتم إحيائها بإذن سلطاني، وتعود رقبته للدولة، وحق التصرف بها لمن أحيائها^(١).

وقد حرم القانون الملكية الجماعية للأرض، أو أن تسجل أراضي القرية كلها بيد شخص واحد^(٢). ولكن استطاع عدد من الأسر القوية الحصول على مساحات كبيرة من الأرض من خلال وعودهم للفلاحين بحمايتهم من تدخل الدولة، وإقناعهم بتسجيل أراضيهم بأسماء أفراد تلك الأسر المتوفين والوجهاء الريفيين^(٣).

وأصدرت الدولة في عام ١٨٦١م قانون تسجيل الأراضي العثماني (الطابو)، وكانت الدولة قد بدأت بتطويب (تسجيل) الأراضي في سورية اعتباراً من عام ١٨٦٠م، واستمرت العملية حتى أواخر العهد العثماني ولم تنته^(٤). وفي لواء الكرك تأخر مسح الأراضي حتى عام ١٨٨٣م، وكان ذلك برئاسة الميجر كتشنر، ولم تعمل اللجنة التي تشكلت برئاسة: سوى أقل من شهر^(٥).

وقد تم تسجيل قسم من أراضي قرى ولاية سورية باسم عدد من متنفذي المدن وذلك بسبب عدم الاستقرار وانعدام الأمن^(٦).

المرايعون:

وهم الذين كانوا يعملون في إقطاعات الباشوات والبيكوات من العسكريين وضمن الأراضي التي يملكونها^(٧)، والمرايع هو من يستخدم من الفلاحين عند أصحاب الحوانيت، وهو الذي يزرع الأرض، ويحافظ على الزرع حتى ينضج، ثم يحصده، وله مقابل تعبه ربع ما ينتج

(١) دعبس، قانون الأراضي العثمانية، ص ٣٥.

(٢) عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلل الخصيب، ص ٤٢٩.

(٣) خوري، طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق (١٨٦٠-١٩٠٨م)، ص ٤٥٤.

(٤) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٣٦.

(٥) فريدريك بيك، تاريخ شرق الأردن وقبائلها، ص ١٨٧.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٧) عمران، خضر، الحياة الاجتماعية في ولاية حلب، ر.ج، ص ٢٥٢.

من جميع الحاصلات^(١). ويقدم صاحب الأرض للفلاح منزلاً وأدوات الزراعة والبذور، ويأخذ النصيب الأكبر من المحصول^(٢).

وكان على المستأجر المربع أن يعطي نصيباً من الغلة للإقطاعيين، وإن يعتني الاعتناء الحسن بالأرض، ومن مساوئ هذا النظام شعور المستأجر بعدم الاطمئنان إلى بقائه في الأرض التي يعمل بها، وبسبب هذا القلق، لم يكن المستأجر يبدي اهتماماً بالأرض يتعدى منفعتها من الموسم الحالي الذي يشتغل فيه. وكان الفلاحون يقتسمون الزائد من غلة الأرض بعد تحسينها مع الملاكين^(٣). ويطالب المربع بزرع نحو ثمانية هكتارات من الحبوب وأن يجهز مثلها للعام القادم، ويأخذ ربع المحصول من المجموع^(٤).

وكان الإقطاعي يقدم المسكن والأرض والحيوانات وأدوات الزراعة والبذور، ويقوم المربع بالعمل مقابل أخذ حصة واحدة من أربع حصص. وكان أيضاً يعمل في قري داخلية في حوزة إقطاعيين آخرين إلى جانب الأراضي التي يطلق عليها (الجفتاك). وكان المربعون - بشكل عام - لا يملكون شيئاً، وهم يعملون مقابل لقمة الطعام التي يأكلونها^(٥).

(١) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج ٢، ص ٤٢٧-٤٢٨؛ عوض، نظام ملكية الأراضي في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية (١٨٣٩-١٩١٤م)، مجلة دراسات تاريخية، ٣٥ع، آذار ١٩٩٠م، ص ٥٦.

(٢) عيساوي، التاريخ الاقتصادي، ص ٤٢٩.

(٣) عاشور، عصام، نظام المربعة في سورية ولبنان وفلسطين، مجلة الأبحاث، السنة الأولى، م ١، ١٩٤٨م، ص ٤٨-٥٨.

(٤) عيساوي، المرجع السابق، ص ٤٩٢.

(٥) عمران، الحياة الاجتماعية، ص ٢٥٣.

الحرفيون (أصحاب المهن اليدوية البسيطة):

شكل الحرفيون طائفة حرفية شأن الطوائف الأخرى، فكان للحرفيين في كل قرية شيخهم، وكان للحرفيين في مجموعة القرى أو المقاطعة شيخ مشايخهم، إلا أن الرابطة الحرفية لم تكن واضحة وقوية شأن الروابط الأخرى، حيث كانت رابطة الدم أو الرابطة المذهبية هي الرابطة الأقوى التي تشد الفلاحين إليها، حتى أصبح استقرار الفلاحين في القرية أو المقاطعة على هذا الأساس^(١).

وقد قسمت قرى الفلاحين إلى حارات سميت الواحدة منها باسم إحدى الجهات الأربع أو إحدى الأشجار المعمرة أو أحد الينابيع أو المزارات، ووجد في القرية أحيانا تجار واحد وصانع فخار وبيطار وبناء وحجير وكحال، وأحيانا داية، وكلهم يقدمون خدماتهم لأسر القرية، كما كان فيها بائعون وحراس ومسجد وكنيسة^(٢).

وقد نظم أبناء القرية الواحدة أنفسهم، فكانوا وحدة متماسكة متعاونة يكفل أبنائها بعضهم في مواجهة الحاكم الذي يحكمهم، فكل حي في القرية مختار ينتخب من كل أبناء الحي، ويشتون انتخابه أمام القاضي، وكانت مهمة المختار أن يتكلم عن الحي الذي يمثله في كل أموره، ويمثل الفلاحين أمام السلطات المحلية في القرية، ويضمن للدولة تنفيذ قوانينها في قريته ويجمع الرسوم المقررة على الفلاحين. وحين يخالف رؤساء أو مشايخ القرى أحكام القانون أو يظلمون الفلاحين فإن الفلاحين يشكون أمرهم إلى القاضي الذي ينصفهم ويلغي مشيخته^(٣).

وكان الفلاحون ينتخبون من بينهم كاتباً لحسابات القرية، وفي الغالب يكون الكاتب خطيب القرية أو أحد قسيسيها. كما يختار الفلاحون من بينهم من يحرس لهم القرية، ويدعى (الحاووط) ويدفعون له أجره من الرسوم^(٤).

(١) نعيسه، ملكية الأرض، ص ١٦٢-١٦٣.

(٢) نعيسه، أوضاع الفلاحين في دمشق وصنائجها (١٧٧٢-١٨٤٠م)، مجلة دراسات تاريخية، السنة السابعة، ع ٢٣، أيلول ١٩٨٦م، ص ٦١.

(٣) يوسف، عبد الودود محمد، بنية الريف الحموي الاجتماعية والاقتصادية في القرن التاسع عشر ونماذج من قراءة مجلة الحوليات الأثرية السورية، ج ١، م ٢٠، ١٩٧٠م، ص ٤٢؛ وانظر أيضاً:

- Richard Nyrop, Syria, A Country Study, p58.

(٤) يوسف، بيئة الريف الحموي، ص ٤٣.

وبلاحظ أن الفلاحين في حوران كانوا ينتظمون على أساس عشائري، ولم يبرز تأثير التنظيم الحرفي في الحفاظ على حقوقهم، بل دفعهم التعصب العشائري إلى الصدام مع فلاحين آخرين كما دفعهم للوقوف أمام البدو^(١). ويذكر الرحالة بيركهارت أنه ((قليل ما نرى الفلاحين ولدوا في قرية ما من حوران يموتون في مسقط رأسهم لكثرة ترحلهم هرباً من ظلم الحكام والبدو، فلم يزرعوا الأرض من أجل الغرباء))^(٢).

الأمن:

سادت الفوضى وانعدم الأمن في القرى خلال فترة الدراسة وذلك عندما تولى ولاية عجزوا عن تحقيق الأمن والاستقرار، وازداد تعدي الأقوياء من الجند والبدو والهيئة الحاكمة على الفلاحين، وكان الجند يتصرفون مع الفلاحين كسادة مستبدين، فهم يطلبون الخبز والقهوة والتبغ واللحم، ويذبحون الدواجن، بالإضافة للإهانات والإذلال. وكان سيفهم مصلتاً فوق رقاب الفلاحين، ويجبرونهم على السكوت عن مظالمهم. وكثيراً ما أجبروا فلاحي الغوطة المحيطة بدمشق على اللجوء إلى أسوارها خوفاً من اعتداءاتهم^(٣).

وأسهم بعض التجار في هذه المظالم التي تلحق بالفلاحين، حيث كانوا يستغلون وضع الفلاح وحاجته لشراء البذار والحيوانات أو لدفع الجوع عن أسرته. ولم يخفف نظام المالكانة الذي أقامته الدولة الأعباء التي أرهقت الفلاحين، فهذا النظام لم يبدل طبيعة العلاقات الزراعية القائمة على الاستغلال، كما أنه أجبر الفلاحين على دفع أموال الميري عن الأشهر القمرية في حين تنضج محاصيلهم حسب الأشهر الشمسية الأمر الذي دفعهم للاستدانة من تجار دمشق وغيرها من المدن والقرى بفائدة تصل ٥٠% وأكثر. وحتى الأوزان لم تسلم من تلاعب التجار، فعندما يتسلم التاجر الحبوب من الفلاح تصبح عشرة الفلاح تسعة، وإذا ما اشترى الفلاح الغلال من التاجر تصبح عشرته إحدى عشرة، ويصبح الفلاح بلا فائدة بعد أتعابه طوال السنة، وتعاد الكرة مرة أخرى وهكذا^(٤).

(١) نعيسه، العلاقات الزراعية، ص ١٦٣.

(٢) بيركهارت، رحلات بيركهارت، ص ٧.

(٣) نعيسه، أوضاع الفلاحين، ص ٥٤؛ وانظر: -Richard Nyrop, Syria, A Country Study, p62.

(٤) نعيسه، المرجع السابق، ص ٥٥.

ولعب صيارفة اليهود دورا كبيرا في ظلم الفلاحين إذ استطاعوا أن يملكوا حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر جزءا كبيرا من أراضي الغوطة والمزة والربوة، وكان الصيارفة اليهود يتواطؤون مع أبناء دينهم السماسرة برفع سعر النقد قبل جمع أموال الميري من الفلاحين، ويضطر الفلاحون عند تسديد ما عليهم من ديون إلى دفع السعر المرتفع^(١).

وكان البدو يتلفون الزرع وينهبون ويطلبون الخاوة من الفلاحين، ويقطعون الماء عن القرى. وكانت الحكومة ترسل قواتها لردعهم^(٢). وقد ثار الفلاحون في جبل الدروز عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م حيث كانوا يعملون بالأجرة دون أن يكون لهم حق تملك الأرض، وفي الوقت نفسه كانوا يطردون من القرى والمزارع دون سبب^(٣).

وثار الفلاحون في حماه سنة ١٣٢٧هـ، ١٩١٠م نتيجة ارتفاع أسعار الحبوب حيث كسروا أبواب مخازن الحبوب التابعة للحكومة ونوافذها^(٤).

وفي جبال العلويين: رفض الفلاحون عام ١٢٦١هـ/١٨٤٤م دفع الضرائب الكثيرة المتراكمة عليهم للحكومة، وعندما قامت السلطات التركية باعتقال اثنين من الفلاحين هاجم الحكومة أكثر من ٥٠٠ فلاح، وحرروا المساجين. وفي سنة ١٨٥١م رفض الفلاحون في جبل العرب دفع الضرائب، وعندما أرسلت السلطات العثمانية حملة تأديبية بقيادة والي دمشق من أجل جمع الضرائب بقوة السلاح هاجمها الفلاحون الدروز وضربوها واستولوا على أسلحة الحملة وعثاها^(٥).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن سكان القرى عانوا من اعتداءات القبائل البدوية على مواشيهم وأراضيهم الزراعية، ففي الربيع كانوا يعتدون على أراضيهم ويتخذونها مراعي لقطعانهم^(٦)، مما كان يضطر السكان إلى دفع مبلغ سنوي من المال أو كمية من الحبوب أو عدد

(١) نعيمه، أوضاع الفلاحين، ص ٥٦.

(٢) البشير، العدد ٢٢٨٩، السنة ٤٤، ٨ آب ١٩١٣م، ص ٢.

(٣) أبو صالح، عباس، مكارم، سامي، تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٢٩٧؛ البشير،

العدد ١٢٤٠، السنة ٢٧، ٢٧ تموز ١٩٨٦م، ص ٢.

-Syria, A Country Study, p70.

(٤) المقتبس، العدد ٤٤٧، السنة ٢، ١٤ آب ١٩١٠م، ص ٢.

(٥) حنا، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان (١٨٤٠-١٩٥٠م)، ص ١٦٢.

(٦) الاتحاد العثماني، ع ٢٣١، سنة ١، ٢٤ حزيران ١٩٠٩م، ص ٢.

من الماشية تعرف باسم (الخواوة) إلى القبائل البدوية لحماية مواشيهم ومزروعاتهم من النهب والسلب^(١).

وكنّت الخاوة تخف تدريجياً كلما امتدت سلطة الدولة الفعلية إلى المنطقة مما ساعد على توفير الأمن والحماية للسكان المستقرين وبالتالي تشجيعهم على الإقامة في أراضيهم، وكنّات الحكومة - حتى تضمن عدم اعتداء العشائر على السكان - تأخذ العهود والمواثيق على مشايخهم عند كاتب العدل^(٢). وقد كانت الولاية تدفع بقوات من الدرك وقطع صغيرة من مدفعية الصحراء للتخفيف من اعتداءاتهم، ولكن ذلك كله لم تكن له جدوى^(٣).

وكان الفلاحون إذا لم يدفعوا الخاوة حرق البدو زرعهم واعتدوا على نسلاتهم وأخذوا أطفالهم رهينة. وهكذا شارك البدو الفلاحين في زرعهم، وعاش الفلاحون نهياً مقسماً بين الحكومة التي ترهقهم بالضرائب وفي الوقت نفسه تعجز عن حمايتهم، وبين البدو الطامعين في ثرواتهم^(٤).

وقد قام سكان القرى نتيجة لاعتداءات القبائل بتشكيل وحدات متحالفة تتألف من قرية أو عدة قرى وتتزعّمها لأقوى عشيرة للمحافظة على مواشيها ومزروعاتها من الاعتداءات البدوية المتكررة، ولكن شيخ القرية الأقوى كان يفرض نفسه حاكماً أو سلطاناً عليهم، ويرهقهم بمطالبه، ويفرض عليهم ممارسات أشد قسوة مما يفعل البدو، ولذلك أصبحوا يتراخون في صد الهجمات البدوية^(٥).

وعلى الرغم من اعتداءات البدو كانت هناك علاقات تجارية نشطة للفلاحين معهم، إذ كان البدو يقايضون المواشي وما ينتجونه من سمن ولبن وصوف بما يحتاجون إليه من السكان المستقرين كالمواد الغذائية والملابس^(٦).

(١) سلمان، بولس، خمسة أعوام في شرق الأردن، ص ١٤٥؛ البيان، العدد ١٤ السنة ١٢٠١ أيار ١٩١٩م، ص ٣٥؛ البشير، ١٢٠٢٤ السنة ٢٦، ٥ تشرين الثاني ١٨٩٥م، ص ٣٠٢؛ والعدد ١١٧٦، السنة ٢٦، ٢٨ أيار ١٨٩٥م، ص ٣٥.

(٢) القسوس، المذكرات، ص ٥٢.

(٣) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٩٩؛ البشير، ع ١١٧٠، السنة ٢٦ آذار ١٨٩٥م، ص ٢؛ والعدد ١١١٨، السنة ٢٥، ٢٨ آذار ١٨٩٤م، ص ٢.

(٤) عوض، المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(٥) الموسى، منيب الماضي، تاريخ الأردن في القرن العشرين (١٩٠٠-١٩٥٩م)، ص ٤.

(٦) الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء، ص ٢٧.

وأستكمالا لصورة الوضع الأمني في ولاية سورية لا بد من الإشارة إلى أنه في عام ١٨٨٨م أسندت قيادة طابور الفرسان الخامس في الولاية إلى ميرزا باشا (وهو من الشركس)، وكانت هذه القوة مسؤولة بشكل مباشر عن حفظ الأمن والنظام في المدن والقرى في حوران وجبل الدروز وبين العشائر والقبائل، وقد بذلت جهودا كبيرة في قيامها بهذا الواجب، وحقق بعض النجاح^(١).

ومن جهة أخرى كان الأهالي يتقاتلون فيما بينهم إذا دفعهم الأمر إلى ذلك، فقد اختلف أهالي قرية الدروز وقرية أخرى على حدود الأرض، وقتل اثنان من الدروز ومسيحي واحد^(٢).

هذا وقد ساعد فقدان قوى الأمن على انتقال السلطات الإجرائية الحكومية إلى الأحياء ومخاتيرها، وأصبحوا بمثابة المجلس الإداري والقضائي والتنفيذي وحماة الحقوق بالنسبة لأفراد حيهم. أما قوى الأمن الحكومية والسلطة الإجرائية الرسمية فمكلفة بصيانة نفسها والمحافظة على الأماكن التي تسكنها، وكانوا يعرفون عند العامة باسم (الضابطية). ومن مقتضى نظام الحي أن يكون المختار - وكان يسمى (أغا) - هو الرئيس الأول بالحي يسانده الإمام، وينضم لهما بعض شيوخ وعلماء الحي عند الحاجة. وكثيرا ما كانت الحكومة تستعين بالمختار على استيفاء حقها من ضرائب أو تجنيد^(٣).

(١) حغندوقة، خير الدين، ميرزا باشا، ص ٢٤.

(٢) البشير، العدد ٢١٩٢، السنة ٤٣، ٢٩ تشرين الثاني ١٩١٢م، ص ٣.

(٣) العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص ٤١-٤٢.

المأكل والمشرب:

اتصف غذاء الأسرة الريفية بالبساطة وقلة التغيير، وكان أساس وجبات الفلاح الحبوب (القمح، الذرة، الشعير)، فكان يصنع من دقيقها الخبز حيث تولت المرأة عجن الدقيق وخبزه في التتور ليؤكل مع البرغل^(١)، وصنع الفلاح الفريكة خاصة في حوران لكثرة إنتاجها من القمح، وصنعوا الحساء من العدس المجروش. واعتمدت الأسرة في غذائها على الألبان^(٢). وصنعت من الحليب السمن والزبدة والجبن، وتمونت بالدبس والزيت والزيتون والتين والمخللات^(٣).

وكان أغلب طعام الفلاحين المجدرة والبرغل والحساء المصنوع من العدس المجروش^(٤).

أما اللحوم فتطبخ في المناسبات كالأعراس والأعياد والوفاء بالنذور. وفي الولائم كان المدعوون يخلعون أحذيتهم خارج عتبة البيت، ويتناولون قبل الطعام وبعده القهوة العربية. والطعام الرئيسي في الريف هو المنسف. ومن عاداتهم كراهية الحديث على الطعام^(٥).

ويقول بيركهارت: لقد اقتصرت الأسرة الفلاحية الحورانية في غذائها على وجبتين من الطعام في اليوم، وكان خبزها دقيق الشعير، كما اقتصرت في تناولها للحم على مرتين في العام^(٦).

(١) الجالودي، قضاء عجلون (١٨٦٤-١٩١٨م)، ص ٢٨٨؛ وانظر أيضا:

George Hadadd, Fifty Year, p183.

(٢) نعيسه، أوضاع الفلاحين، ص ٦٥.

(٣) كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٨٩.

(٤) زكريا، الريف السوري، ج ١، ص ٨٩-٩٠.

(٥) الزواهرة، الحياة الاجتماعية، ص ٨٠-٨١.

(٦) رحلات بيركهارت، ص ٤٥.

الأزياء:

حافظ الريفيون على أزيائهم أكثر مما فعل أبناء المدن، وذلك لعزلة أبناء الريف عن المؤثرات الخارجية، بالإضافة للظروف الطبيعية والمناخية والمعتقدات الدينية.

زي الرجال: تألف لباس الجسم من القميص والصدريّة والقطشية*، وكان الجوخ بلون غامق أسود أو أزرق أو بني أو أبيض، وهناك الشال أو الزنار (من قماش المسلمين)، وكان يطوى بشكل مائل ويلف حول الخصر وفي طرفيه شريطان يعقدان من الخلف عند الرجال ومن الأمام عند النساء. وهناك الكمر الذي صنع من القطن وكان بشراشيب، واستخدمته النساء لحزم ثيابهن على أوساطهن^(١).

أما غطاء الرأس فكان يختلف من منطقة لأخرى، ففي حوران كان رجال الدين يرتدون تربانا يلف حوله شاش أبيض، وكان الفرد العادي يرتدي كوفية مثبتة بالعقال، وكان فلاحو الغوطة يضعونها مباشرة على الرأس. والعقال عبارة عن طارة كبيرة توضع على الرأس بذائرتين كبيرتين متقاطعتين، وله من الخلف دلالية تنتهي من الأسفل بطرفين صغيرين على شكل هلال فتحته إلى الأسفل. وكان أبناء الجبال يرتدونه فوق الحطة. واستخدم أبناء حوران العقال فوق الكوفية وهو مصنوع من وبر الجمال. واستخدم الطربوش في الغوطة بعد التنظيمات كلباس للرأس^(٢).

أما حماء فكان اللباس فيها يتألف من الدراعة ذات الذوائب وفوقها القطشية أو الدشداشة، وقد تطورت الدراعة إلى القنباز ثم الجلابية مع الدامر* أو القطشية للقنباز والجاكيت للجلابية. ولباس الرأس مؤلف من المنديل الروز (القضاضة البيضاء) مع العقال^(٣).

* القطشية: عبارة عن دامر مقطوع، وهي أشبه بدامر بالغ القصر من الجوخ الأزرق مفتوحة من الأمام. وليس لها أكمام ولا أزرار.

(١) زكريا، الريف السوري، ج ٢، ص ٦٨؛ وانظر أيضا: حسن حمامي، الأزياء الشعبية، ص ١٣٨-١٤٣.

(٢) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٠٩-٦١٠؛ أيضا: كرد علي، خطط دمشق، ج ٦، ص ٣٠٠.

* الدامر: كساء من الجوخ يلامس الخاصرتين ويطلق عليه اسم الدراعة.

(٣) موسى، علي، حربه، محمد، محافظة حماة، د.ط، ص ١٦٧؛ كرد علي، المذكرات، ج ٢، ص ٣٦٤.

وكانت العباءة من أهم ثياب الريف، وكان الفلاح يرتديها فوق ثيابه جميعها، ومنها أنواع كالعباءة الجبلية لدى سكان المرتفعات وكانت تسمى الزنارية أو الحمراء، وكانت قصيرة فلا تكاد تغطي ركبتي الرجل، وأكمامها قصيرة لا تتعدى المرفقين وخالية من العروات أو الأزرار. وكانت تحزم من الوسط بشريطين صغيرين من الأمام أو بزناز رفيع عند العمل.

وكانت عباءة جبل حوران تصنع من الجوخ الأسود، وهي طويلة متهدلة تصل إلى القدمين وذات أكمام ضيقة وطويلة، ولها أشرطة أمامية من القماش نفسه تستخدم لثبيتها على الكتفين^(١).

وكان أبناء الريف يلفون أرجلهم بقطع من القماش الطويل الصوفي، ويلبسون في أقدامهم حذاء عالي العنق، واستخدموا الأحذية الجلدية المصنوعة مثل الخف والنعل وغيرها^(٢).

زي النساء: كان اللباس الرئيسي للمرأة هو البدلة، وتصنع من الجوخ أو المخمل الأسود، وتتألف من قطعتين منفصلتين: عليا ضيقة تبعث على الدفء، وسفلى واسعة تساعد على المسير. وكانت تزين من الأسفل برسوم دائرية أو مطرزات متموجة. وعلى الصدر عدة ثنيات مستقيمة ومتوازية. وقامت المرأة بوضع زناز من الشال الصوفي فوق البدلة كانت تعقده من الأمام أو الجانب بدلا من الخلف. وتغطي المرأة ثوبها الرئيسي من الأمام بواقية نصفية^(٣).

وهناك الدراعة، وكانت المرأة ترتديها فوق البدلة عندما تخرج من بيتها، وهي عبارة عن معطف مفتوح على طوله من الأمام وله فتحتان جانبيتان في قسمه السفلي، وتطرز بزخارف ورسومات نباتية هندسية من الأمام وعلى الكتفين والكمين والظهر. وكان قصيرا نسبيا ليسمح للبدلة الرئيسية بالظهور من الأسفل^(٤).

(١) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ١٣٢-١٣٤.

(٢) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦١١.

(٣) حمامي، المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٤) المرجع السابق، ص ١٧٩.

أما القطشية فقد ارتدتها فوق ثوبها الرئيسي الطويل، وهي نصفية مفتوحة من الأمام عريضة وواسعة وذات أكمام طويلة وليس لها أزرار. وهناك قطشية العمل، وكانت بسيطة دون زخارف متوسطة الطول، وذات لون أسود عموماً^(١).

وهناك القبعة، وتتألف من قطعة قماش مستطيلة الشكل تنثنى عند تقصيلها في نصفين متساويين بحيث يغطي كل جزء النصف الآخر تماماً، ثم تخاط الأطراف الجانبية وتترك فتحتان جانبيتان ليخاط فيها الكمان. وتطرز فتحة الصدر بشريط من الزخارف الهندسية والسورود الملونة^(٢).

واستخدمت المرأة الزنار لحزم الثوب الرئيسي من الداخل أو الدراعة من الخارج، واتخذت مسميات مختلفة مثل: الشالة العجمية، والشالة الملونة والكمز. وكان الزنار القماشي يعقد من أحد الجانبين أو من الأمام^(٣).

أما غطاء الرأس فيتألف من الطاقية، وكانت مستديرة الشكل بيضاء أو حمراء، وتوضع مباشرة على الرأس. وكانت الغاية منها تثبيت العمامة وامتصاص العرق.

ومن أغطية الرأس العصابة، وهي قطعة مربعة الشكل من القطن أو الحرير ذات لون بني أو أسود أو خمري مطعمة بالخيوط الذهبية أو الفضية وفق خطوط مستقيمة، ولها شرائيب على جميع أطرافها، وتطبق حول الرأس بدورين بحيث تظهر متدلّية على الجبين. وتكون خيوط القصب واضحة من الأمام ثم تعقد أطرافها من الخلف^(٤).

وهناك الطرحة، وهي عبارة عن غطاء رقيق من قطعة مستطيلة الشكل يسبّل فوق العصابة فيغطيها كلياً أو جزئياً، ثم يردف قسم منها إلى الخلف فيلف العنق وجزءاً من الوجه والكتفين. وكانت تلف حول العنق وتردّف إلى الخلف حتى تصل إلى الأرض ثم تدفع إلى الأعلى وتعلق بواسطة الزنار وذلك عند نساء بعض قرى القلمون. ولون الطرحة كان بين الأسود والبني^(٥).

(١) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ١٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٣) نعيمه، ح ٢، ص ٦١٦-٦١٧.

(٤) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٢٠١.

(٥) نعيمه، أوضاع الفلاحين، ص ٧٣.

وهناك أيضا الشنبر، وهو عبارة عن منديل حرير أسود اللون مستطيل الشكل طوله متران أو أكثر وعرضه بين ٥٠-٦٠ سم، وي طرح على الرأس مباشرة وتنزل أطرافه تحت ثوب المرأة^(١).

وفي حماة كان لباس المرأة الرئيسي يتألف من التنورة، والسملوقة ذات الكشكش، مع غطاء رأس من الحرير أو القطن يتدلى من الرأس على الظهر، ويثبت على الرأس بغطاء مربوط خلف الرأس يعرف بالقمطة. وقد تطورت القمطة من العصابة إلى الإشارب^(٢).

وفي حوران كان الزي التقليدي للمرأة يتألف من ثوب تختاره من الأقمشة ذات اللون الواحد الغامق، ويضاف إلى الثوب غطاء للرأس مؤلف من قماش حرير مستطيل تغطي به المرأة رأسها وصدرها (الشنبر) ثم تعصب رأسها بعصابة من القماش القطني الأسود، وقد تكون من الحرير الملون المزركش بخيوط فضية أو ذهبية، وتسمى (الحطة). وتطل من تحت جانبي العصابة أو الحطة ومن وسطها خصلات من تحت الرأس. وفي الشتاء تلبس النساء والمسنيات فوق الثوب عباءة صوفية قصيرة يطلق عليها اسم (الشالة)، كما تلبس الدامر فوق الثوب، وهو من الجوخ^(٣).

(١) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦١٩.

(٢) حربه، محافظة حماه، ص ١٦٧-١٦٨.

(٣) الحديد، صور من حياة المرأة العربية في درعا، مجلة العمران، ص ١٥٢.

عرفت الأسرة الفلاحية تماسكا قويا مكنها من الصمود أمام أقسى الظروف التي تعرضت لها، وكان الرابط الدموي في الريف متميزا عنه في المدينة، حيث نجد مجموعة الأسر المختلفة المشتركة النسب في القرية الواحدة. وكان الولد الذي يتزوج لا يخرج عنها، وإنما يبقى مع الأسرة فتكبر. وتكاد المنازعات العصبية تكون معدومة بين أسر القرية الواحدة^(١).

الزواج: من تقاليد الزواج في الريف أن يتم طلب يد الفتاة، وبعد الموافقة المبدئية يذهب أهل العريس بجاهة كبيرة، ويستقبل أهل العروس الجاهة، ويرحب أبوها بالخطاب، وتُسأل العروس عن الموافقة^(٢)، حيث يرسل لها شخصان للاستفسار عن موافقتها، ثم يعقد القران ويبارك للعريس الذي جاء لبيت أهل العروس حيث يقضي الليلة عندهم. وفي اليوم التالي تقوم العروس بإحضار جرة ماء لبيت أهل العريس وتقضي اليوم عندهم، وفي المساء يدعو أهل العريس أهل العروس فيتناولون العشاء ومعهم الأهل والأصدقاء. ويكون موعد الزفاف في شهور الراحة وهي من كانون الأول إلى شباط، حيث يكون المزارعون قد أتموا بذر الحبوب. ويدعى للعرس جميع أهل البلد حيث يقدم لهم الطعام، ويقوم الرجال والنساء بإحياء الحفلات والرقصات والدبكات في بيوت أهل العريس والعروس^(٣).

وجرت العادة أن يجلب النور الذين يتقنون الضرب على الطبل لإحياء حفلات العرس لدى الأسر الغنية، ويبقى الطبال يضرب على طبله والرجال والأولاد يلعبون بالسيف والعصا لمدة ثلاثة أيام، حتى إذا جاء اليوم الرابع يزفون العروس إلى عريسها. ويتم قبل ذلك تدوير العريس حول القرية، وكانت العادة أن تركب العروس على حصان أو جمل يرافقها الراقصون وزغرودة النساء إلى أن تصل إلى بيت عريسها حيث يكون بانتظارها، وتكون بيده قطع الحلو والنقود التي يرميها فوق رأسها قبل دخولها إلى البيت أملاً في جلب السعادة والذرية، وتُعطى العروس قطعة من العجين لإصاقها على عتبة الباب قبل دخولها عنواناً للمحبة^(٤).

(١) زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٦٢؛ وانظر: زكريا، الريف السوري، ج ٢، ص ٦٦.

(٢) Richard Nyrop, Syria, A Country Study, p69.

(٣) زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٦٨-٦٩؛ وانظر: الحديدي، صور من حياة المرأة العربية، ص ١٥٢-١٥٥.

(٤) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٧٠١؛ وانظر: عبد الرحمن، العادات الاجتماعية وتقاليد الشعب في

وكان هناك حالات من زواج البذل (الشغار)، إذ يتزوج شاب من شقيقة شاب آخر بمهر مبني على تزويج الثاني من شقيقة الأول، ثم يقوم كل من الشابين بتجهيز عروسه وتأثيث بيته^(١).

وكان الطلاق في الريف قليلاً لكثرة مشاغل الفلاحين مما يبعد عنهم الضجر والملل^(٢)، كما كان تعدد الزوجات قليلاً أيضاً في الأرياف^(٣).

وفيما يتعلق بعمل المرأة فكانت تشرف على تربية الدواجن وجمع بيضها، وحلب المواشي، وترويب الحليب واستخراج السمن منه، وإعداد الكشك، ونسج الصوف والقطن، ودبغ الجلود، وعمل البسط والخيام.

واستخدمت المقايضة بمنتجات المواشي لشراء ما تحتاجه الأسرة من البائعين، ومن الأسواق الأسبوعية التي كانت تعقد في القرية أو الخانات القريبة والبازارات^(٤).

وكانت المرأة تشارك زوجها وأهلها في فلاحة الأرض وجني المحصول وتجهيز القمح لطحنه. أما عملها الأساسي فهو طهي الطعام والتفرغ للأسرة وطحن الغلال والخبز وإحضار الحاجيات من الدكان أو الماء من العين أو البئر، وإصلاح شؤون الأسرة وملابسها. وكان نشاطها في البيع والشراء قليلاً مقارنة مع نشاط المرأة في المدينة، إذ لم تكن قضايا البيع مهمة لدى النساء في الريف^(٥).

(١) الحديدي، صور من حياة المرأة العربية، ص ١٥٦.

(٢) الزواهره، الحياة الاجتماعية، ص ٦٦.

(٣) زكريا، الريف السوري، ج ٢، ص ٧٣.

(٤) نعيمه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٤٨٢؛ وانظر أيضاً: Richard Nyrop, Syria, A Country Study, p55.

(٥) زواهره، الحياة الاجتماعية، ص ٦٤-٦٥.

الأوضاع الصحية:

كانت أهم الأمراض التي تصيب الريف هي السل والرمم والحصبة والتسهاب السحايا والتيفوئيد والجدي والمalaria والذنتاريا^(١).

وكان الجدري من أكثر الأمراض انتشاراً عندهم حيث كان ينتشر في حوران وبعض القرى التابعة لها. وكانت الولاية تهتم بالعلاج، حيث أجريت عملية التلقيح ضد هذا المرض^(٢)، وفي بعض الحالات كان الأشخاص المصابون به يموتون بعد فترة قصيرة من الإصابة^(٣)، وذلك على الرغم من أن الاهتمام بالنظافة الفردية كان كبيراً حيث تقوم المرأة بغسل ملابس أهل بيتها باستمرار على النهر إن كانت من عامة الناس، وفي بيتها إن كانت من الأعيان^(٤).

وكانت البلدية قد افتتحت صيدلية في سوق الدراويش تفتح ليلاً ونهاراً وتعطي الفقراء جميع الأدوية مجاناً بعد أن يشهد المختار بحقيقة فقرهم^(٥).

وكان الريفيون يؤمنون بالخرافات والأساطير، وكانوا يعتقدون أن الحسد والعين سبب لمعظم الأمراض. ولعلاج المريض كانوا يبادرون إلى سرقة قطعة من ثياب المشكوك في أنه أصاب بالعين، وتمرر عند أنف المريض لكي يشفى^(٦). وكانوا يعتقدون أن المريض يخف إذا كتبت له السلامة على يد صاحب طريقة مشعوذ^(٧).

ومن أهم أسباب انتشار الأمراض في الريف تلوث المياه، فقد كانت أكثر مصادر المياه في القرى ملوثة وغير صالحة للشرب، وكانت سبباً لانتشار الحمى والإسهالات المعوية والديزنتاريا^(٨).

(١) زكريا، الريف السوري، ج ١، ص ١٠٩، ١٨٧.

(٢) البشير، ع ١٥٤٢، السنة ٣٣، ٢٦ أيار ١٩٠٢، ص ٣؛ وكذلك العدد ١٣٩٩، السنة ٣٠، ٢٦ آب ١٨٩٩، ص ٣.

(٣) البشير، العدد ٩٢٢، السنة ١٩، ١٦ أيار ١٨٨٨، ص ٢.

(٤) زواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٨٢.

(٥) البشير، ع ١٠٦٨، السنة ٢٢، ١٠ حزيران ١٨٩١، ص ٣.

(٦) زواهره، المرجع السابق، ص ٧٩.

(٧) كرد علي، غوطة دمشق، ص ٤٩٧.

(٨) زكريا، الريف السوري، ج ٢، ص ٥٥.

ولم توجد في أكثر بيوت سكان القرى مراحيض، وكان ذلك من أسباب انتشار الأمراض السارية. وكان السبب الرئيسي لانتشار الأمراض المعوية والإسهالات عند الأطفال هو الذباب والبعوض حيث يكثران في الأماكن القذرة التي تحمل الجراثيم، ويتم نقلها من هناك إلى الأطفال^(١).

(١) وصفي زكريا، الريف السوري، ص ٥٦.

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية في البادية

١. عشائر البدو وتقسيماتها - الصلح العشائري - صفات البدو وعاداتهم.
٢. الروابط بين القبائل.
٣. الأمن.
٤. الأزياء.
٥. المأكل والمشرب.
٦. الأسرة.
٧. الأوضاع الصحية.

الحياة الاجتماعية في البادية

فرضت البادية على مجتمعها حياة خاصة يعتبر التثقل والترحال طلباً للماء والكلأ أبرز مظاهرها. والتثقل والترحال جعل البدو بعيدين عن تنظيمات الدولة، وحضارة المجتمع المستقر، بما فيه من قضاء ومحاكم. ولذلك ساد بينهم القضاء البدوي، وطبقت فيما يتعلق بظروفهم المختلفة الأعراف العشائرية. كما تميز مجتمعهم بتعصب أفراد القبيلة لبعضهم. وشكلت القبيلة أو العشيرة وحدة اجتماعية متكاملة في البادية، واختلفت اهتمامات العشائر بمصادر الرزق الأساسية، فبعضها اهتم بالجمال، وبعضها اهتم بالأغنام، وبعضها ساعدته الظروف فترك هذا وذلك واهتم بالزراعة واستقر.

وكانت للبدو - بشكل عام - عادات وتقاليدها وتقيدوا بها وحافظوا عليها على مر الأجيال، وستعرض الباحثة تلك العادات والتقاليد، كما ستعرف مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة من مأكلاً ومشرب وأزياء وأمن وأوضاع صحية عند البدو فيما يلي. ولكن لا بد من التعرف قبل ذلك على أنواع العشائر حسب اهتماماتها الحياتية.

العشائر وتقسيماتها:

تعتبر تربية الماشية الوسيلة الأولى لحياة البدوي، غير أن البدو لم يهتموا جميعاً بتربية نوع واحد منها، فهناك من القبائل من فضلت الجمال، ومنها من فضلت الأغنام، ومنها من عزفت عن هذا الاهتمام إلى حد كبير، وفضل حياة الاستقرار القائمة على الزراعة، بعد أن تهيأت الظروف لذلك:

١. العشائر الجمالة أو أهل الإبل، ويسمون (البدو الرحل)، أو البدو الأقحاح، أو البدو ذوو النجعة البعيدة. ويتخذون بيوتاً من الشعر لسكنائهم والخيول لركوبهم والإبل لمعاشهم^(١)، ولا يدفعون للدولة سوى ضريبة الودي، وهم في ترحل دائم^(٢)، ويحملون السلاح باستمرار ويسيرون في الطرقات وعبر الصحراء، ويعتبرون أشد البدو جرأة على تحمل المشاق. ولا يرتادون المدن أو القرى إلا للضرورة لشراء حاجياتهم، أو لبيع بعض إبلهم وخيولهم وأغنامهم أو

(١) زكريا، الريف السوري، ج ١، ص ٢٩٣؛ السالنامة ١٣٠٢هـ، ص ٢٢٧؛

Richard Nyrop, Syria, A Country Study, p67; Hadadd, Fifty Years, p192.

(٢) زكريا، جولة أثرية، ص ٢٩٣؛ السالنامة، ١٣٠٢هـ، ص ٢٢٨.

بيع أوبارها وأصوافها^(١). وقد اعتبر هؤلاء البدو مصدر خطر على الفلاحين، فقد اقتسموا النفوذ في قراهم، وفرضوا عليهم الخاوة^(٢).

٢. العشائر الغنامة أو أهل الغنم، ويسمون نصف رجل أو نصف حضر، أو البدو ذوو النجعة المحدودة أو عربان الديرة تمييزاً لهم عن البدو الجمالة. ويسمون أيضاً الرعية لارتزاقهم من رعي الماشية، أو شوايا لأنهم رعاة شاه، وهم أيضاً أهل إبل وخيل وحل وترحال، ويسكنون بيوت الشعر^(٣). وهم يرحلون في الشتاء إلى البادية بحثاً عن المرعى والدفع، ويعودون في الصيف لقراهم وضياعهم^(٤). ويشبهون العشائر الجمالة من حيث الخشونة والميل إلى انتهاك قرى الفلاحين، ويختلفون في أنهم لا يعاملون معاملة الجمالة في عرف البادية، فلا تشهر عليهم الحرب، ولا يجار الملتجئ إليهم، ويتبعون قواعد الحق العادي إذا كانوا في القرى والعرف العشائري في البادية^(٥).

٣. العشائر المستقرة: وهم الأعراب الفلاحون (الفلايخ) الذين تركوا الترحال ولجأوا للعيش الثابت وحماية الدولة، وهجروا بيوت الشعر، وعاشوا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية^(٦). وهم أكثر ارتباطاً بالأرض، ولا يختلفون في حالتهم الاجتماعية عن الفلاحين، وكانوا في حوران يدفعون ضريبة سنوية كانت تفرض على كل خيمة بمعدل ستين قرشاً في السنة يرسلها شيخ القبيلة إلى والي دمشق^(٧).

(١) زكريا، الريف السوري، ج ١، ص ٢٩٤.

(٢) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٩٨.

(٣) زكريا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٥.

(٤) زكريا، جولة أثرية، ص ٢٩٥.

(٥) زكريا، الريف السوري، ج ١، ص ٢٩٥.

(٦) زكريا، جولة أثرية، ص ٢٩٦؛ السالنامة، سنة ١٣٠٢ هـ، ص ٢٢٧.

(٧) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٩٨.

التكوين الاجتماعي عند البدو:

تتألف القبيلة عند البدو من عشائر، والعشيرة من فرق، يرأس كل فرقة شيخ. ويخضع شيخ الفرقة لشيخ العشيرة، وشيوخ العشيرة يتبعون لشيخ القبيلة المعروف عندهم بشيخ المشايخ، وهو من له الحق في إعلان الحرب، وعقد الهدنة، وإبرام الصلح مع القبائل الأخرى^(١).

وتكون مصالح العشيرة ومعاشها ومنازلها واحدة، ففي حالة الحرب يتحد أبناء العشيرة كما يتحدون في السلم، والعشيرة لا تدافع عن أرضها لأنها لا تملك هذه الأرض بل تدافع عن حقها في الحياة في تلك الأرض أي عن حقها في الميراث^(٢).

ويتشكل مجتمع العشيرة من أربع طبقات، هي:

١. طبقة الشيوخ: ويسمون (شيوخ) ولو كانوا حديثي السن، وهم أصحاب الرأي الراجح على سائر الطبقات^(٣)، وكانوا يمنحون لأنفسهم حق إدارة أراضي القبيلة كلها. وكان شيوخ القبائل يحددون طرق الارتحال وأمكنة مضارب الخيام، والدور في استخدام ينابيع المياه^(٤). وكانت الحكومة المركزية تدفع معاشاً للشيوخ إغراء لهم بعدم معارضة الحكومة، واستمالة لهم ليساعدوها في أداء مهماتها^(٥).

٢. طبقة الرواسي أو الكبراء: وهم يتلون الشيوخ في المنزلة الاجتماعية، ويرأسون فرقهم.

٣. طبقة العامة: وهم السواد الأعظم من أفراد العشيرة، والحاملون أعباءها المكثفون بالضرائب^(٦).

٤. طبقة العبيد: وهي الطبقة الدنيا، ويكون أفراد هذه الطبقة من غير أبنائها، وأفراد العشيرة لا يصاهرونهم، ولم يكن يسمح لهم بمغادرة الخيم إلا إذا أمرهم الشيخ بذلك^(٧).

(١) القسوس، القضاء البدوي، ص ٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٨٤.

(٤) كوتلوف، حركة التحرر الوطني، ص ٩٢؛

-Richard Nyrop, Syria, A Country Study, p68; Hadadd, Fifty Years, p193.

(٥) جويسر، السياسة والتغيير في الكرك، ص ٧٥.

(٦) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ١٨٥.

(٧) كوتلوف، حركات التحرر، ص ٩٣.

الصلح العشائري:

يتبع القضاء عند البدو العرف والعادة، فليس هناك قوانين مكتوبة ولا خطط مرسومة، وهي في أيدي شيوخ العشائر، وهؤلاء إما قضاة في الدعاوى التي تقام وسط العشيرة، أو محكمون في القضايا التي تقام بين العشائر المجاورة، ويتخذون قراراتهم في ضوء الخبرة والتعامل القديم والوقائع السابقة المماثلة^(١).

والحقوق البدوية التي يستند إليها قضائهم هي قوانين محفوظة في البادية لتأديب المجرمين وتهذيب الأعراب، يعرفها أرباب القضاء^(٢). ولهم طريقتان لحسم الخلاف القائم بينهم هما القسم والتقاضي عند القاضي البدوي. والقسم عندهم أنواع مختلفة، منه ما يسمونه القسم الجاري أو القسم الصغير، ومنه قسم اليد، والقسم الكبير، ومنه قسم العشبة، ومنه قسم النملة أو الشملة^(٣).

ففي القسم الصغير يقوم الشيخ وسط الخيم ويقول: أقسم عليك بالله وبصلاة محمد هل فعلت الأمر الفلاني، فيقول والله وصلاة محمد لم أفعل^(٤). وفي حلف اليد، يضع المحلف يده على رأس المحلف ويقول: ((أناشدك الله بما تحوش وتنوش، بحلابات الحليب ونسافات العسيب (الخيل)، وبالنساء وما تجيب، داخل عليك عالما والعيال، من الحل والاستحلال، اليوم بين عينيك وباكر بين متنيك (أي اليوم تراني وغداً تحملني على النعش)، بخيبة علي وبينة عليك، إن أكلتها تسرك وإن خبيتها تضرك، ما صار كذا وكذا؟ فيجيب: إي بالله ورسوله صار كيـث وكيت، أو: لا بالله ورسوله ما صار ذلك))^(٥).

ويقولون في أقسامهم ((أنا حاضر بحضارك وبموقد نارك، أما صار كذا وكذا))^(٦)، ويقولون في حلف العشبة ((بحق هذه العشبة الملوية والكاذب ما له نرية))^(٧).

(١) زكريا، ج ١، ص ٢٥٧.

(٢) رعد، عبد الله، محاضرة بعنوان القضاء عند عرب البادية، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م ١٢، ج ٩، ١٩٣٢م، ص ٥٣٣.

(٣) سلمان، خمسة أعوام في شرقي الأردن، ص ٨١.

(٤) رعد، المرجع السابق، ص ٥٣٥.

(٥) رعد، المرجع نفسه، ص ٨٤.

(٦) سليمان، خمسة أعوام، ص ٨٤.

(٧) المصدر السابق، ص ٨٤.

أما قَسَم النملة أو الشملة: فحينما يكون العرب وكبارهم مجتمعين في شق الرجال من الخيمة، بعد طول جدال بين فريقين على أرض أو فرس أو غير ذلك، يقوم أمير البيت ويخرج بمجلسه خارج الخيمة، ثم ينتضي سيفاً ويخط به دائرة كبيرة، ويضع في وسط الدائرة حبة حنطة ونملة. فالحنطة تدل عند العرب على أكرم ما خلق الله، والنملة تمثل الحكمة والفطنة والإدراك، ثم يمد السيف في منتصف الدائرة. عندئذ ينتزع المتهم عنه سلاحه ويدخل في وسطها ويضع يده على نصاب السيف ويقسم قائلاً ((والله العظيم والسيف الكريم ما فعلت الشر ولا سرقت ولا قتلت...))^(١). وكثيراً ما يتغير لون وجهه وترتخي مفاصله وترتجف يداه ورجلاه من الرعب وربما رجع عن الحلف وأقر بما فعل^(٢). ومنهم من قد يشرب السم القاتل، ومنهم من ينزل في المياه المغلية على النيران ليظهر نقاوته ويزكي نفسه^(٣).

ويعد الحلف بالمقامات عند الأعراب من الأيمان العظمى، وربما أقسم البدوي بالله موات عديدة وأبى أن يقسم بالأولياء والمزارات المقدسة، على أن العرب يتركون في غالب الأحيان القَسَم لرهبته، ويلجأون إلى القاضي البدوي، وهو ما يسمى بالقضوة^(٤).

وللقضوة إجراءات محددة، فيعد أن يتفق المتداعيان ويختاران أحد القضاء ويراجعانه ويترافعان أمامه، ويدخلان بيت الشيخ (القاضي) حينما يكون جالساً في صدر بيت الشعر للقضاء، ومن حوله وجوه العشيرة. وبعد شرب القهوة يقوم أحد المتخاصمين (المدعي)، ويجلس في وسط البيت بين الحاضرين، ويلتفت إلى القاضي ويقول - وهو عندهم بمثابة الاستدعاء يفتتحون به الدعوى - : (وايش بك يا قاضينا، ياللي حقاك تراضينا، جيتك هدي ومشياً قدي، أفلح وأصلي عالنبى - فيقول الجميع: والصلاة والسلام عليه - حظي وحظك يدخلان على أربعة وأربعين نبي من الغوط والنوط والحق الردي، وأنا داخل عالمال والعيال من شيء ميين علي، وعليك يميني، وأنا حاطها بعيونك السود وربك القعود، وبالامرأة وما تجيب، ونسافات العسيب)^(٥)، ثم يذكر ما جرى معه بصوت عالٍ بحيث يسمعه الجميع، ويورد البراهين إلى أن ينتهي ويعود إلى مقامه. وعندئذ يقوم المدعى عليه ويجلس في وسط المجلس ويكرر المقدمة نفسها، ثم يعلن أدلته، ولا يعارضه أحد في شيء، والقاضي أثناء ذلك كله صامت، لا يبيدي

(١) رعد، المرجع السابق، ص ٥٣٧.

(٢) سلمان، خمسة أعوام، ص ٨٥.

(٣) سلمان، المرجع السابق، ص ٨٥؛ رعد، القضاء عند عرب البادية، ص ٥٣٦.

(٤) رعد، المرجع السابق، ص ٥٣٦؛ سلمان، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٥) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٦٣؛ سلمان، المرجع السابق، ص ٨٦.

كلمة. وبعد أن ينهي المتقاضيان حديثهما يلتفت القاضي إليهما ويقول: إفلحوا واصلحوا خير لكم. فإذا أبيا إلا إظهار الحق يقول: قدموا الرزقة^(١).

والرزقة هي رسم المحاكمة الذي يدفعه أحد الخصمين للقاضي، وتقدر بربع ما يخاصم عليه، وتكون إما نقوداً أو عروضاً كفرس أو سيف أو بعير، وربما يرفض القاضي ما يعرض عليه فيرفض الحكم، إلى أن يستحسن ما يقدم له^(٢).

والرزقة أنواع كثيرة، منها ما يسمونه رزقة المبطل، ورزقة الحق. ورزقة المبطل هي التي يدفعها المجرم أو المفتري للقاضي؛ أما رزقة الحق فهي التي يدفعها صاحب الحق، وإذا استأنف المحكوم عليه الدعوى إلى قاض أكبر وحكم له بالحق، وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة يردّها له المحكوم عليه^(٣).

وبعد أن يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليهما أن يقدم كل واحد كفيلاً يتعهد أمام الشهود بدفع الرزقة إذا أبى الآخر تقديمها. وقد يكون الكفيل غائباً ولا يحضر مجلس القضاء حينما ترفع الدعوى، وإنما يختاره الحاضرون والقاضي لإنفاذ الأمر، وقد يكون حاضراً وهو القائم بين الحضور في أثناء الدعوى. ولكل من الكفيل الغائب والحاضر واجبات تختلف عن الآخر، فالغائب مضطر إلى قبول الكفالة، أما الحاضر فله الخيار في قبولها أو رفضها، ولا بد أن يكون الكفيل معروفاً بين العشيرة بصدقه واقتداره على الدفع. ولا تقبل كفالة شاهد الزور والجناء الذين يهربون في الغزوات^(٤).

وبعد تعيين الكفيل يتجه القاضي نحو المدعي ويقول له: يا فلان، إذا كان عندك شاهد لا يكذب ولا يوجد عليه اعتراض فليقدم ويشهد، فيجيب: عندي يا قاضي العرب فلان وفلان وفلان. فيلتفت القاضي إلى أكبر الحاضرين ويقول له: ويش تقول يا شيخ عن فلان؟ فإن كان مقبول الشهادة يقول: (والله إنه مقبول الشهادة، ما أنا خابر عليه الذرب الذي يذربه عن الشهادة). وإن كان مرفوض الشهادة يقول: (والله إنه غير مقبول)^(٥).

(١) زكريا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٦٣.

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٢٦٣؛ رعد، القضاء عند عرب البادية، ص ٥٣٧.

(٣) زكريا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٦٤.

(٤) رعد، المرجع السابق، ص ٥٣٩؛ سلمان، خمسة أعوام، ص ٩٠.

(٥) سلمان، المرجع السابق، ص ٩٠-٩١.

وبعد ذلك يقف الشاهدان ويقسمان القسم البدوي. والنساء في جميع العشائر لا تقبل لهن شهادة إلا عند عشائر النصارى في السلط والكرك ومادبا، وشهادتهن ثابتة وقوية^(١). وبعد أن تنتهي المحاكمة ينطق القاضي بأمثال يبين فيها أحكام القضاة من قبله في أمور جرت من عهد قديم، وينطق بالحكم القاطع بقوله: (أنا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي، ومن عند أجاويد الله مثلكم، إن فلاناً هو المجرم وفلاناً هو البريء)^(٢). ويورد ما لديه من الأدلة والبراهين، وهنا ينتهي الحكم.

ومن الحقوق عند البدو:

حق الشتم: حيث يعدون الشتمية أشد تأثيراً من حد السيف. فقد تثير الشتم الحروب، وتحمل المشتوم وأهله على الانتقام^(٣).

حق البيت: فمن أهان بيتاً عندهم أهان أصحابه النازلين فيه، بل إن أهل العشيرة كلها، ومن تعدى عليه نال جزاءه إهانة وعذاباً^(٤).

حق الوجه: والوجه عند العرب هو الكفيل الموكول إليه إجراء ما يتفق عليه فريقان، والوجه لا يخون صاحبه ولو فقد ماله وحياته. ومن تعدى على صاحبه يجد أمامه أعداء كثيرين بسبب الوجه، لأن العشيرة كلها مع الوجه^(٥).

حق الدخيل: وهو الرجل المستجير الخائف من أمر أصابه أو سبب فيه، حيث يعمد إلى شيخ كبير قوي يستغيث به ويدخل في حماه^(٦).

حق الدم: السنة عند العرب هي: (الدم يطلب الدم)، على أن من لا يقدر على أخذ ثأره يطلب الدية، وتدعى عند الأعراب (العقلة)، وقدرها ٢٢,٢٢٢ قرشاً، وقاتل المرأة وخاصة

(١) رعد، القضاء عند عرب البادية، ص ٥٣٩.

(٢) سلمان، خمسة أعوام، ص ٩٦.

(٣) رعد، المرجع السابق، ص ٥٤٠؛ سلمان، الحقوق البدوية في شرق الأردن، مجلة المشرق، العدد ٢، ١٨٩٨م، ص ١٠٣.

(٤) سلمان، الحقوق البدوية، ص ١٠٦.

(٥) رعد، المرجع السابق، ص ٥٤٢؛ سلمان، خمسة أعوام، ص ١٠٣.

(٦) سلمان، الحقوق البدوية، ص ١٠٩.

العذراء يدفع أربعة أضعاف الدية لأنها إنسان ضعيف وقتلها جرم كبير على الرجل، وإهانة مذلة له^(١).

حق العرض: ويكون عندما يخطف أحد فتاة، فلاهل الفتاة الحق بأن يصنعوا بالخاطف ما يشاؤون خلال مدة ثلاثة أيام فقط^(٢).

صفات البدو وعاداتهم:

لا تختلف عادات البدو من قبيلة لأخرى، فالأعرابي فطر على العز والفخر، ولا يقبل بالذل والإهانة، ويطمح إلى نيل الصيت والشهرة الواسعة بين عشيرته وأصدقائه. وهو يفني ماله لإكرام الضيوف، وعندما تدنو وفاته يجمع أولاده قائلاً لهم: (يا بني الأعزاء إفدوا نفوسكم من أموالكم لضيوفكم لتكسبوا الإكرام والإجلال)^(٣).

ومن صفاتهم أيضاً الصفح والعفو، فربما تهيأ للواحد منهم لقتل خصمه، ثم تجلت له عواطف الرحمة والشرف، وعندئذ يصفح عن عدوه^(٤).

ولهم في الغارات أدوات عرفوها واستعملوها في حروبهم مثل السيف والطير (الفاص) والمزراق. وأكثر اعتمادهم على الرماح واستعمال البنادق. وهم كثيرون الغزو إما للكسب أو للأخذ بالثأر، فإن ذهبوا إلى الغزو أرسلوا الطواريش - وهم الرقباء أو الجواسيس - ، فإذا اتهم الأخبار بما استبشروا به خيراً ساروا بين فرسان ومشاة ومراديف كفرقة واحدة حتى يبلغوا ما يقصدونه، فتتقدم الفرسان وتبقى المراديف وتتبعهم المشاة، فإذا خسروا عادوا من حيث أتوا وإن ظفروا خلفوا جماعة تسوق الماشية والإبل^(٥).

وإذا وجد البدوي ضعفاً من أحد أبناء السبيل في البرية سرق منه ماله وثيابه ودابته ولكنه نادراً ما يقتله.

(١) رعد، المرجع السابق، ص ٤٣٥.

(٢) سلمان، الحقوق البدوية، ص ١١٠؛ رعد، المرجع السابق، ص ٤٣٥.

(٣) سلمان، المرجع السابق، ص ٩٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٩٦.

(٥) البستاني، البدو، المقتطف، م ٧، ١ تشرين أول ١٨٨٧م، ص ٢٠٢.

وإذا لم يكن عند البدوي ما يتسلى به من القصص والأخبار يأخذ شاعر القبيلة ربابة يضرب عليها، ويغني ما يحفظ من أشعار، ويكون في الغالب ما ينشده بلهجتهم التي يالفونها. وأكثر ما يتغنى به الحماسيات وأخبار الغزاة والغزوات. والرقص معروف عندهم وهو الدبكة أو السحجة، ويرقص في الغالب الفتيان والفتيات دون الرجال والنساء^(١).

ومن العادات المتفق عليها عند البدو ما اصطلح على تسميته (الثلاث البيض) ويعنى بها الضيف السارح والطبيب السابح*، وخوي الجنب، فإذا دهل الضيف حياً من أحياء البدو فالواجب أن يضيفه أول بيت يمر به. أما الطبيب السابح فهو الجار الملازم لجاره حيث له حق الحماية والدفاع عنه. وخوي الجنب هو الرفيق. فمن سار مع البدوي سبع خطوات أصبح خويه، ووجب عليه أن يقاتل معه ويحميه^(٢).

ويسكن البدو في بيوت من شعر الماعز، واجتماع هذه البيوت يؤلف الحواذ أو الحله أو النجع. وهي بمثابة قرية إلا أنها متحركة. ويتألف بيت الشعر من مستطيل كبير مؤلف من قطع طويلة تسمى الشقق، تتم خياطتها بجانب بعضها بعضاً، يتكون من السقف الذي يقوم على أعمدة خشبية يتوسطها ما يعرف بالواسط، وهو أطولها. ويتألف البيت أيضاً من الرواق، وهو أيضاً قطعة من نسيج شعر الماعز أو وبر الجمال. ويربط الرواق بأسياخ من الحديد. ويقسم داخل البيت إلى قسمين: الربة أو الشق للرجال، والمحرم أو الخدر للنساء، ويفصل بينهما حاجز من القصب يسمى زرب يمنع رؤية الضيوف لنساء البيت. وأمام البيت تحفر حفرة النار وعلى جانبها يكون الرماد، وفي قسم الرجال تمد البسط واللحف للضيوف، وتوضع المخدات للاتكاء. وعادة ما يكون لكل أسرة بيت واحد، إلا شيخها أو كبار الرؤساء فقد يكون لكل منهم أكثر من بيت^(٣).

(١) علي، الخطط، ج ٦، ص ٣١٢.

* الطبيب: هو الشخص الذي ينزح عن عشيرته إلى عشيرة أخرى ليس لها ارتباط إداري مع عشيرته أو قبيلته.

(٢) شكاره، ضياء، القيم الاجتماعية في المجتمعات العشائرية، مجلة التراث الشعبي، ج ١١، تموز ١٩٧٠م، ص ١٠-١٥.

Richard Nyrop, Syria, A Country Study, p67

(٣) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ١٩٥-٢٠٥؛

الروابط بين القبائل:

ترتبط القبائل فيما بينها بروابط الصداقة، فإذا أصبحت عشيرة صديقة لأخرى صارت مساوية لها في الحقوق والواجبات كأنها فرقة من فرقها، وكل من العشيرتين يحتفظ باستقلاله، وإذا تنازعتا على الآبار وموارد المياه، يفصل الرؤساء في الأمر^(١). وإذا ازدادت أو اصبحت الصداقة بينهما تتحول إلى تحالف حقيقي، فإذا أصاب أحد الفريقين المتحالفين غارة أو عداوة من عشيرة غريبة على الفريق الآخر أن ينجده ويقف بجانبه^(٢).

وإذا كان بين العشيرتين الصديقتين نزاع مستمر، وأغارت على إحداها عشيرة غريبة تقضان النزاع بينهما مؤقتاً، وتتفان معاً في وجه العشيرة الغريبة، وإذا توثقت عرى الصداقة بين عشيرتين إحداها أقوى من الثانية تصبح الضعيفة من أتباع القوية ولو احقها كما هو الحال بين الفواعة والأحسنة^(٣).

ويستطيع من يشاء من العشيرة أن ينضم إلى عشيرة أخرى بالحلف أو الولاء، فيقال فلان حليف بني فلان. ويجوز له أن ينتسب إلى القبيلة الأولى وأن ينتسب إلى القبيلة التي دخل فيها^(٤).

وغالباً ما تكون الحروب والغزوات هي السائدة بين القبائل. وغزو القبائل بعضها بعضاً يحول دون بقاء الثروة فيهم، بالإضافة إلى النقص في الأنفس. ولذلك فإن من النادر أن يبلغ الرجل في القبيلة سن الشيخوخة المتأخرة لأنه يقتل في الغزوات^(٥).

وشن الحرب على عشيرة أخرى أمر عظيم وخطير، يجب عدم الإقدام عليه إلا بعد تفكير، ويجب أن يسبقه إرسال إنذار، وإلا فإن رئيس العشيرة الذي يقصر في ذلك تصدر في حقه أحكام قاسية، ويعرض نفسه لابتعاد حلفائه من حوله. وقد تتخلل الحرب بين الفريقين معارك كبيرة وحقيقية^(٦).

(١) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ١٩٣؛ كوتلوف، ص ٩٨.

(٢) كوتلوف، حركات التحرر، ص ١٠٠.

(٣) زكريا، عشائر الشام، ص ١٩٣.

(٤) الفلقشندي، المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٥) علي، خطط الشام، ج ٦، ص ٣٠٨؛ البشير، العدد ١٤٤٠، ١١ حزيران ١٩١٠م، ص ٢.

(٦) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ١٩٤.

وهناك قواعد يجب مراعاتها في الحروب، ومن ينقضها يصبح عرضة لمواخاة القضاة حين تسوية النزاع، وهي^(١):

١. ضرورة العناية بالجرحى سواء كانوا من الأصدقاء أم الأعداء، إذ يجب أن يحملوا إلى المخيمات حيث يعتنى بهم حتى يرسلوا إلى أهلهم. أما من كانت جروحهم خطيرة فيمكن الإجهاز عليهم لتخليصهم من الآلام، ولكن بعد موافقة الخطيب وطبيب العشيرة اللذين يجب أن يرافقا الشيخ.

٢. أخذ سلاح الأسرى وسوقهم إلى مكان بعيد ومن ثم إطلاق سراحهم.

٣. قسمة الغنائم، ويتولى ذلك الشيخ بعد أن يأخذ حصة تبلغ عادة الثلث.

الأمن:

اتبعت الدولة العثمانية أساليب متعددة تجاه العشائر البدوية في الولاية، فراها تقوم بمهادنتهم واسترضائهم. ولضمان سلامة قافلة الحج الشامي وتأمين حمايتها من اعتداءات العشائر كانت الدولة تلجأ إلى دفع مبالغ سنوية نقدية أو عينية (الصرة) إلى العشائر القوية الواقعة على طول طريق الحج الشامي^(٢). وقد اهتمت الدولة بتوطين البدو في الولاية فأصدرت قانوناً لتشجيع البدوي على الاستقرار يتضمن بأن رب الأسرة التي تتكون من (١-٥) أفراد تعطى ما بين (٥-٦) دونماً من الأرض، وكل أسرة يزيد عدد أفرادها على خمسة تعطى ما بين (١٠-٢٠) دونماً^(٣).

وكانت الدولة تدفع للبدو أيضاً ليشرفوا على ملء البرك بمياه الأمطار خلال فصل الشتاء كل في منطقته، وبهذه الطريقة ضمنت الدولة سلامة الحجاج من الاعتداءات، وأمنتهم بالمياه. ولم يكن البدو ينقضون عهودهم إلا عندما كان رجال الدولة ينقضون تلك الاتفاقيات فلا يدفعون الأموال المعتادة لشيوخ القبائل، وعندئذ كان البدو يهاجمون موكب الحجاج ويفتكون برجال القوة العسكرية التي ترافقه، ويسلبون الحجاج أنفسهم لكي يضطروا رجال الدولة إلى القيام بالتزاماتهم نحوهم^(٤).

(١) زكريا، المرجع السابق، ص ١٩٤.

(٢) الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء، ص ٢٧٣؛ عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٩٤.

(٣) الجالودي، قضاء عجلون، ص ٥٣.

(٤) الماضي وموسى، تاريخ الأردن، ص ٣؛ البشير، العدد ١١٥١، ٢٤ تشرين ١٨٩٤م، ص ٣.

ونادراً ما كانت القبائل البدوية تتحالف مع السلطات العثمانية، وكثيراً ما ثارت على هذه السلطات أو دعمت الثائرين عليها. وقد لجأ العثمانيون في محاولة منهم لتطبيع البدو إلى الاعتراف بزعامة كبيرهم شيخاً أو أميراً للبدو في المنطقة التي يسيطر عليها، وكانت الدولة تغدق عليه الأعطيات والتكريم لتنفيذ سياستها بواسطته. وكثيراً ما تحكّم البدو بخطوط المواصلات وخاصة طريق الحج والطرق التجارية التي تربط بلاد الشام بالعراق^(١).

وكانت عصابات البدو تقوم بالاعتداء تحت أنظار الضابطية والبوليس أنفسهم، دون أن يلقوا أي عقاب^(٢)، وخاصة أن إرسال قوات نظامية إلى تلك القبائل يكلف الدولة مبالغ كبيرة^(٣).

ومع تكرار عدد الدروز في جبل حوران كثر في المقابل خصومهم من قبائل البدو، حيث أن هذه القبائل الرحالة كانت تقصد مع ماشيتها مراعي الجبل لتمضية فصل الصيف فيه. ولم يكن من السهل على هؤلاء العربان القبول بسيطرة الدروز على جبل حوران لذلك جرت بينهم وخاصة عرب الرولة وبين الدروز مواقع عديدة^(٤). وقد حافظ الدروز على مركزهم في وجه المعارضة من قبل القبائل البدوية^(٥).

وكانت الدولة تلجأ إلى تجريد حملات عسكرية لحمل العشائر البدوية على الطاعة والانقياد لسلطة الدولة وإجبارهم على دفع الضرائب المترتبة عليهم، ومنع اعتداءاتهم على السكان القرويين^(٦). وكانت الدولة تلجأ في بعض الأحيان إلى أخذ رهائن من شيوخ العشائر البدوية وأبنائهم لضمان خضوع عشائهم وإجبارهم على دفع الأموال المستحقة عليهم^(٧).

واتبعت الدولة أحياناً أخرى سياسة التودد والإرضاء مع شيوخ العشائر حيث كانت تتعم عليهم بالمناصب الإدارية والأوسمة والرتب والخلع لضمان ولاء عشائهم لها^(٨).

(١) رافق، مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام، ص ١٤٥.

(٢) صلاح الدين، العلاقات العربية التركية في بلاد الشام، ر.ج، ص ١٨١.

(٣) جويسر، السياسة والتغيير في الكرك، ص ١٧.

(٤) أبو صالح، تاريخ الدروز، ص ١٩٩؛ البشير، العدد ١٤٩٥، السنة ٣٢، اتموز ١٩٠١م، ص ٣.

(٥) شطي، توسع البدو في بلاد الشام وانحسارهم، مؤتمر تاريخ بلاد الشام، ج ١، دمشق، ص ٤٠٩.

(٦) Cross, Ottoman Rule in Province of Damascus, p147.

(٧) بيك، تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، ص ٢٣٩؛ البشير، العدد ١٣٨٨، السنة ٣٠، حزيران ١٨٩٩م، ص ٣.

(٨) سالنامه ولاية سورية، سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، ص ٢٣٦.

وعندما كانت الدولة تفشل في أساليبها السابقة كانت تلجأ إلى إثارة العشائر ضد بعضها بعضاً، بل توقع الفتنة بين أبناء العشيرة الواحدة^(١). وقد استعان والي سورية راشد باشا بفرسان الدروز وعشيرة عنزه في محاربة قبائل البلقاء^(٢).

هذا وقد تعرضت الدولة لثورتين كبيرتين: الأولى في حوران^{*}، والثانية في الكرك.

ثورة الكرك ١٣٢٧هـ/ ١٩١٠م:

لم تكن هذه الثورة وليدة حادث معين أو سبب معين، بل كانت لها أسباب كثيرة منها قطع المخصصات التي كانت تتقاضاها العشائر الكركية مقابل الحفاظ على الخط الحجازي بأمر من والي سورية إسماعيل فاضل باشا^(٣). وهناك عامل آخر ساهم في تحريض العشائر البدوية وبشكل خاص عشيرة المجالي وهو ما حدث في انتخابات مجلس الإدارة للسواء الكرك، حيث رفضت الحكومة تعيين الشيخ قدر المجالي في مجلس الإدارة بالرغم من أنه فاز بأكثرية الأصوات في الانتخابات الخاصة لعضوية المجلس، وتعيين مصطفى الجعفري مكانه^(٤).

والسبب المباشر للقيام بالثورة هو عزم الحكومة على إحصاء نفوس سكان لواء الكرك كما أحصت سابقاً نفوس لواء حوران، وتسجيل الأراضي والأماكن. فقد أعلن مشايخ الكرك العصيان وساعدتهم في ذلك مشايخ البدو في المناطق المجاورة بعد أن قطعت الدولة مرتباتهم، فقد اعتدى البدو على السكة الحجازية، ونهبوا القطارات بالقرب من محطة القطرانة، وبذلك اندلعت ثورة الكرك^(٥). وقد فتك الثائرون بالموظفين الأتراك، وأحرقوا منازلهم، ولم ينج منهم إلا من التجأ إلى القلعة التي ما لبثت أن حوصرت من قبل الثائرين، ولكن الحامية العثمانية فيها

(١) البشير، العدد ١٤٤١، السنة ٣١، حزيران ١٩٠٠م، ص ٢-٣، والعدد ١٣٩٤، السنة ٣٠، السنة ٢٤ تموز ١٨٩٩م، ص ٣.

(٢) الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء، ص ٢٧٦.

* ورد ذكر ثورة حوران في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(٣) صلاح الدين، العلاقات العربية التركية، ص ١٨٨.

(٤) القسوس، مذكرات عودة القسوس (١٨٧٧-١٩٤٣م)، وثائق ووقائع من تاريخ شرق الأردن خلال ٧٠ عاماً، ص ٧٥.

(٥) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٩٤؛ جريدة سورية، العدد ١، ١٢ رجب ١٣٠٣هـ/ السنة ٢١، ص ١؛ المقتبس، العدد ٢٢٣، السنة ١، ١٦ أيلول ١٩١٠م، ص ١.

استطاعت الدفاع عنها إلى أن جاءت نجدة عسكرية كبيرة رفعت الحصار عنها، وأعاد الأمن إلى تلك المنطقة، وأنزلت بالثائرين عقاباً صارماً^(١)، فقد قام والي دمشق بإخضاعهم بقوة وقسوة ووحشية شديدة^(٢).

ولم تقتصر أحداث الثورة على الكرك فقط بل امتدت إلى الطفيلة ومعان، وقد أرسلت قوة عسكرية من الكرك للمنطقتين وأعاد الأمن إليهما^(٣).

(١) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٩٤؛ الهدى، العدد ٢٣٩، كانون أول ١٩١٠م، ص ١؛ المقتبس، العدد ٥٦٢، كانون أول ١٩١١م، ص ٢-٣؛ والعدد ٥٦٥، السنة ٢، ٤ كانون ثاني ١٩١١، ص ٢-٣؛ والعدد ٥٧٣، ١٤ كانون ثاني ١٩١١م، ص ٢؛ والعدد ٥٧٤، السنة ٢، ٢٢ كانون ثاني ١٩١١، ص ٢.

(٢) عبيدات، التطور الحضاري في الأردن خلال القرن العشرين، ص ١٤.

(٣) القسوس، المذكرات، ص ٧٥.

الأزياء:

كانت البساطة هي الغالبة على لباس البدو، ولا فرق عندهم بين ملابس الصيف والشتاء، إلا الأغنياء منهم فقد كان الرجل يلبس عباءة رقيقة في الصيف اسمها (مزوية أو خسوية)، وفي الشتاء يزيد عليها كساء مبطناً أو جلدًا من جلود الغنم المدبوغة يسمونه (فروة أو صدريّة)^(١). وكانت العباءة غالباً ما تصنع من وبر الإبل. وكانت العباءة من ملابس الشتاء لدى أمراء البدو، وكانت من الجوخ الأحمر أو الأخضر أو بالألوان الأخرى، إضافة إلى شريط ذهبي أفقي على الأكتاف، ومطرزة بعدة ورود وبعري للأزرار من الأمام^(٢).

ويتألف لباس البدوي من قميص واسع طويل، وفوقه قميص أطول وأوسع حتى القدمين يسمى مردن، ذو أكمام عريضة طويلة فضفاضة مشقوقة تدعى (الردون). ولون الثوب أبيض أو ترابي مدبوغ بقشر الرمان ومنسوج من القطن، وكلما كانت الردون طويلة دلت على عراقلة لابسها في البدوة، فإذا وقف لابسها والقريدية إلى جانبيه كاد ردنا ثوبه أن يمس الأرض، ولكنهما غالباً يعقدان وراء الظهر^(٣).

ويلبس بعض البدو الميسورين فوق الثوب ثوباً آخر يعرف بالزبون أو الصاية، ويتحزم عليه بحزام من الصوف، وأحياناً من الجلد، ويكون عريضاً ويعرف عندهم (بالكمر)^(٤).

وليس البدوي من عربان الديرة سروالاً فضفاضاً، أم البدو الأفكاح فلم يلبسوا السراويل أبداً، بل عابوا لابسها (الرجال والنساء على حد سواء)، ويزعمون أنها تحبس الهواء. وكان البدوي لا يغسل ثيابه إلا كل شهرين أو ثلاثة أشهر مرة، إذ ليس لديه غيرها، وقد يعود ذلك لقلة الماء في أغلب الأحيان^(٥).

وكان البدوي الشاب يلبس الجلابية، وتتألف من قطعة واحدة من القماش مستطيلة الشكل تشبه الكيس المفتوح من الأسفل والمتقوب من الأعلى بثلاث فتحات، الأولى للرقبة والأخرى

(١) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٣٠٢؛ موسى، محافظة حماه، ص ١٧١.

(٢) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٢٣٤؛ البستاني، البدو، ص ١٤٧.

(٣) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٧، ص ٦٣٤.

(٤) موسى، محافظة حماه، ص ١٧٠.

(٥) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٧، ص ٦٣٤؛ زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٣.

للذراعين. وتكون الجلابية مفتوحة عند الصدر بخط مستقيم لتزر ياقتها العالية، ويطرز صدرها وعنقها وأكمامها بخيوط حريرية ويلبس فوقها دامر طويل يتلاءم معها لونا ونوع قماش^(١).

وهناك أيضاً الفروة، وتسمى بقذلية إذا كانت طويلة، أو أبطية إذا كانت قصيرة. يأخذونها من جلود صغار الخراف ذات الصوف الأبيض الناعم، ويجعل الصوف من الداخل طلباً للدفء والراحة. وقد تبطن من الخارج بقماش أسود ناعم أو أزرق خمري، ولها أكمام متوسطة الطول واسعة تثبت على الجسم بواسطة عرى وطرز وأزرار^(٢).

أما غطاء الرأس عند البدوي فهو الحطة (الكوفية أو الشماغ)، وتدعى القضاضة أيضاً، ويسمى البدوي النقاب، وهي قطعة مربعة من نسيج القطن الأبيض تطوى وتوضع على الرأس تحت العقال. وقد يكون تحتها طاقية. وتطوى بشكل مثلث لتوضع على الرأس ويتدلى طرفاها على الكتفين أو أمامهما، بينما يتدلى الطرف الثالث منها إلى السوراء ويلف فوقها العقال أو البريم، وهو بني اللون من وبر الجمال، مبروم ثلاثة أطواق على بعضها بعضاً^(٣). وقد يعصب بها رأسه عند النوم، وفي هذه الحالة يفرد طارتي عقاله وينزلهما إلى العنق ثم يربط أطراف دلاياته من الأمام^(٤).

وكان البدوي يلبس في قدميه الخف أو الشاروخ (النعل)، ويلبس في البرد الشديد الجوارب من الصوف. ويطلق على لباس القدمين اسم (القلاشين)^(٥).

أما المرأة فكانت ترتدي الجلاب المصنوع من القطن بألوان مختلفة أسود أو أزرق أو نيلي. وكان الثوب طويل الذيل مجروراً في الغالب على الأرض حين تسير^(٦)، وليس عليه مطرعات أو زخارف، ويكون ثوب العروس والفتاة العازبة مطرزاً بأزهار وأوراق وورود وأغصان مختلفة الألوان والأشكال، وله أردان طويلة تفردهما على كتفيها ثم تعقداهما وراء

(١) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٤؛ موسى، محافظة حماه، ص ١٧١.

(٤) حمامي، المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٥) نعيمه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٣٦؛ حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٦) نعيمه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٣٧؛ زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٥.

ظهرها^(١). وتشد فوقه على وسطها زناراً من الصوف يسمى (الشويحي)، وأحياناً تشد على وسطها الكمر الأحمر اللون^(٢). وتلبس الفتاة البدوية فوق الجلباب دراعة جوخ زرقاء اللون أو سوداء قصيرة الكمين^(٣).

وترتدي العروس في البادية فوق ثيابها عباءة خاصة تشبه في تفصيلها عباءة الرجل الواسعة، إلا أنها ذات أطراف وحواف مقصبة تضعها على مفرق شعرها عند انتقالها إلى منزل الزوجية. وفي الحياة العامة تجعل المرأة عباءتها في منتصف رأسها مسبلة حتى القدمين، ولا تغطي بها وجهها^(٤).

أما غطاء الرأس عند المرأة البدوية فيسمى بالمقرونة، وهي من الحرير الأسود وأطرافها ملونة ذات أهداب سوداء تجعلها بشكل عمامة وتدعى (العصبة) أو القمطة^(٥). وتلبسها تحت الشنبر.

وكانت فتيات قبيلة عنزه يعقدن المقرونة وراء الرأس، أما فتيات عربان الديرة فلم يلبسن الشنبر بل وضعن على رؤوسهن كوفية أو مقرونة دون أن يدورنّها بشكل عصبة، وكانت من القطن أو الحرير الرقيق، يلبسها على رؤوسهن بشكل قمطة، فتتدلى ذات اليمين وذات الشمال على الصدر وعلى الظهر^(٦).

وكانت البنت البكر في أكثر الأوقات تقص الغرة أو الطرة، وتبرز شعرها فوق الجبين إلى قرب قمة الرأس، وإذا تزوجت أرخت شعرها وسترتّه بالمنديل، وهي علامة فارقة بين البكر والثيب^(٧).

(١) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٢٥٣.

(٢) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٥.

(٣) موسى، محافظة حماه، ص ١٧١.

(٤) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٢٥١.

(٥) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٣٧.

* الشنبر: نوع من المناديل الملونة تضعها المرأة في مؤخرة الرأس ليظهر من بين قطعتي القماش بعض خصلات الشعر.

(٦) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٣٧؛ موسى، محافظة حماه، ص ١٧١.

(٧) البستاني، البدو، ص ٢٠٣-٢٠٤.

أما العروس فقد تستعيز عن العصبة الرفيعة بحطاطة مربعة الشكل، وتكون مشرنة بخيوط من الذهب أو الفضة، وتطوى على شكل زنار عريض^(١). وحين العمل كانت البدوية تلبس ثوباً مخصوصاً يسمى (قب) وهو القباء بلون أصفر، وهو كالثوب إلا أن أكمامه أقصر ولونه أخضر ثم يسوء ويختلف لونه بسرعة^(٢).

وأكثر النساء كن يمشين حفاة، أما في الشتاء فيلبسن حذاءً كبيراً يدعى جزمة أو زربول من الجلد الأصفر أو الأخضر، له من الأمام هذبات زرقاء متدلّية^(٣).

المأكّل والمشرب:

طعام البدوي بسيط جداً، وقد لا يأكل الطعام المطهو في السنة مرة واحدة، وبعضهم لسم يأكل الخبز قط، ويعتبر اللبن والتمر قوام حياتهم، لذلك لم تتأثر أجسامهم باختلاف أنواع الأطعمة المركبة من الحلو والحامض والحر والبارد^(٤).

أما طريقة أكلهم فشهيرة، فهم إذا أقبلوا على الطعام لا يجلسون على الكراسي، بل يبسطون الخوان، وهو حصير مدور مصنوع من سعف النخيل ويستبدل به صدر النحاس في المنتديات الكبيرة والمضافات، وتوضع عليه أنواع الطعام دفعة واحدة، فيجلسون حولها على شكل دائرة، جاثين على ركبة واحدة لا يمسون الطعام إلا باليمنى. والمواعين تكون مشتركة بينهم. أما في بيوت الشيوخ والكبراء فيطاف على الحضور قبل الطعام بالإبريق فيغسلون أيديهم أو يبللونها وبعد الانتهاء من الطعام يغسلونها بالماء والصابون^(٥).

وغالب طعام البدوي من التمر. ولا تتحر الإبل عندهم إلا للضيوف الكبار أو في عيد الأضحى^(٦). ومن عادة الفقراء أن تأتي المرأة بقدرها للبعير المضحي فتقطع منه قدر الحاجة وتطبخه أمام بيت رب الضحية، ولا تحمل قدرها إلا بعد أن ينضج الطعام. وأعظم ما يكرم به

(١) حمامي، الأزياء الشعبية، ص ٢٥٧.

(٢) نعيسة، مصدر سابق، ص ٦٣٧.

(٣) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٥) البستاني، البدو، ص ١٤٥-١٤٦.

(٦) حميدة، جغرافية سورية البشرية، ص ١٥٦-١٥٧.

الضيف تقديم سنام الجمل المقطع حيث أنه أفضل الطعام في نظر البدوي، وفي الضيافات الكبيرة يحضر أفراد العشيرة باعتبارهم كلهم أصحاب الدعوى، ويغتنمونها فرصة لأنهم نادراً ما يأكلون اللحم طول أيام السنة إلا ما يصطادونه من الغزلان والأرانب^(١).

ومن عادات البدو أن يتناولوا الطعام ساخناً، وإذا قام أحدهم عن المائدة لا يتخلف بعده أحد حتى وإن ظل جائعاً ليفسح المجال أمام غيره ليأكل. ومن العادة أن يكون اللحم ناضجاً كثيراً، وانتهاء الأرز قبل اللحم أمر معيب. هذا ولا يجلس صاحب الدعوة مع المدعوين على الأكل لتلا يزاحمهم فيه^(٢).

ويعتبر (الهفيت) من الأطعمة المحلية التي يشتهر بها البدو، وهي تشبه المنسف باستثناء البرغل، إذ يوضع بدلاً منه الخبز المشروح (الشراك) وفوقه اللحم والسمن واللبن المطبوخ^(٣). والغالب عندهم ألا يواكل الرجال النساء خصوصاً في بيوت الوجهاء^(٤).

أما الشراب الرئيسي عند البدو فهو القهوة المرة، والعادة في تقديمها من اليمين دون تخصيص، على أن يشرب الفنجان الأول صاحب البيت لكي يطمئن الحاضرون على سلامة القهوة وخلوها مما يعيب طعمها. والصبة الأولى في الفنجان تكون عادة باردة فيشربها (المعزب)، ثم يصب للضيف الذي يجب أن تكون قهوته ساخنة^(٥).

ومن أهم شروط الضيافة وآدابها عند البدو استعمال اليد اليمنى في تناول القهوة وتناولها وتناول الطعام أيضاً، وعدم استعمال اليسرى لأن ذلك من الكبائر عندهم^(٦).

هذا وقد كانت بعض البدويات يدخن بالغلليون الذي يصنعه الرعاة من الطين^(٧).

(١) شكاره، القيم الاجتماعية، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤.

(٣) عبد الرحمن، العادات الاجتماعية وتقاليدها في درعا، مجلة العمران، العدد ٣٣، ١٩٧٠م، ص ١٠٩.

(٤) البستاني، البدو، ص ١٤٦.

(٥) عبد الرحمن، العادات الاجتماعية، ص ١٠٨.

(٦) دافيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ص ٧٦.

(٧) نعيمه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٦٣٨.

الأسرة:

تعرف الأسرة عند البدو بالأهل، فإذا ضل أحدهم الطريق سئل: أين أهلك؟ ويقصد بذلك الرجل وزوجته وفروعهما والجد والجدة والطاعنين في السن أو المرضى الذين يعيشون مع الأسرة. وعندما يتزوج الابن فإنه يفتح بيتاً جديداً ولا يبقى مع الأسرة، ويكون الأب هو رئيس الأسرة، وقد يخلفه الابن الأكبر أو الأصغر منه إذا تنازل صاحب الحق. ولرئيس الأسرة حق الحياة والموت على أسرته دون منازع، وله حق الطاعة على الجميع، وعلى من لم تطع الرحيل. وللأسرة عليه حق الإدارة، وتبدير المعيشة، وحل مشكلات الأسرة والدفاع عنها في الأخطار، وتتبع الأسرة كلها العشيرة^(١).

الزواج:

يتزوج البدوي بين سن ١٥-٢٥ سنة، ونادراً ما يتأخر إلى ثلاثين سنة، ويختار خطيبته خلال الحل والترحال واختلاط الجنسين وتعارفهما منذ الصغر، والبنات يتزوجن في سن مبكرة جداً، ولا تسأل الفتاة البدوية في زواجها، لأن الرأي لوليها يعطيها من يشاء ومن يدفع أكثر^(٢). وغالباً ما كانت تعتبر ابنة العم لابن عمها منذ طفولتهما^(٣).

وتتم خطبة الفتاة بعد أخذ رأي والدها، فإذا ما قبل يحضر ولي العريس جماعة من ذوي الوجهة إلى مضارب أهلها، ومعهم ما يلزم للطعام من ذبائح وبرغل وطحين وسمن، وعند وصولهم يقول كبيرهم مخاطباً ولي أمرها: ((جيناك طالبين ومن عندك إن شاء الله ما نعود خايبين))، فيجيب على ذلك ((حياكم الله، القمراء أمامكم والظلمة قفاكم))، وعندئذ يعلنون الموضوع إذ يجيبهم إلى طلبهم بأنه وهبها لهم، فيجيب والد العريس: ((نقابل عملك هذا بمكافأة كذا من المال والحلال من الماشية والجمال))^(٤).

(١) الزواهره، تاريخ الحياة الاجتماعية، ص ٦٢؛ زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢١٢.

(٣) حسن، حديث دمشق، ص ١٧٨.

(٤) نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ١، ص ٧٠٣.

وتزداد المهور وتتقص حسب وضع والد المخطوبة وعريستها المادي والاجتماعي، وقد يدفعون بدلا من المهر الغنم أو الإبل أو الخيل أو الحبوب والبنادق^(١).

وكانت الاستعدادات لمراسم العرس تتم قبل بداية الاحتفالات، وغالباً ما يبدأ الاحتفال يوم الأحد حيث يجتمع الرجال والنساء يدبكون ويرقصون حتى الثلاثاء، وفيه تتشكل قافلة من رجال ونساء عشيرة العريس يركبون الخيل وبعضهم على الأقدام يسيرون إلى بيت العروس وهم يمرحون ويغنون ويطلقون العيارات النارية^(٢).

وقبل أن ينزلوا في بيت أهل العروس يدعوهم أول من يصادفهم إلى ضيافتهم، وبعد إكرامهم تذهب النساء وهن يغنين إلى بيت أهل العروس ويستقبلهم أهل البيت مرحبين، ثم يساتين بالعروس ويلبسنها أثواب العرس ويعطرنها، ويذبح أحد أقارب العريس ذبيحة خاصة لهن، وفي الصباح يأخذن العروس ومعها أمها وإحدى المحرمات وهن يغنين إلى مضارب خيام العريس ويسمون القافلة (قطار العريس). وفي هذا الوقت يكون العريس قد استعد للزفاف، ثم تعد للعروسين خيمة منفردة تسمى (البرزة)، وفي اليوم الثاني تقوم العروس بزيارة أهلها وتأخذ معها سمناً لتقدمه لهم، وتعود من عندهم بالهدايا^(٣). وهذه المراسم يجريها من يتزوج لأول مرة، أما في المرة الثانية أو في زواج الأرمال والمطلقات فلا يتم شيء من ذلك. وإذا كان العريس بسيطاً من العامة تكون حفلة عرسه بسيطة جداً، حيث يكفي بعد الزواج بغداء يقدمونه للأصدقاء وهم يغنون ويرقصون، ويدخل العريس إلى المحرم، ويكون قد أخلى لأجله^(٤). ويفضل البدو الزواج من الأقارب حيث أن ابنة العم في كثير من الأسر تعتبر لابن عمها^(٥). وفي بعض الأحيان يكون الزواج عبارة عن عملية تبادل أختين^(٦).

وينتشر الطلاق في الأوساط البدوية انتشاراً واسعاً بسبب حبهم للتكرار والتغيير، وقد يطلق الرجل زوجته ثلاث أو أربع مرات ثم يردها دون أي حرج، ووجد من الأعراب في سن

(١) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٨؛ نعيسه، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٠٣.

(٣) زكريا، المرجع السابق، ج ١، ص ٧١٣؛ نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج ٢، ص ٧٠٤؛ المصري، الزواج في

مجتمع دمشق من خلال أمثاله، مجلة التراث الشعبي، العدد ٣، ١٩٨١م، ص ٨١-٨٢.

(٤) سلمان، خمسة أعوام في شرقي الأردن، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٥) حسن، حديث دمشق، ص ١٧٨.

(٦) زكريا، المرجع السابق، ج ١، ص ٧١٤.

الخامسة والأربعين من تزوج أو طلق خمسين امرأة. وتسمح الشريعة للزوجة إذا لم تجد نفسها سعيدة في بيت زوجها أن تطلب طلاقها وتلجأ إلى بيت أهلها، ويمكن للزوج عندئذ أن يردها إلى بيته إذا أرضاها، أما إذا رفضت فلا يحق له أن يغضبها، وعليه هنا أن يلفظ كلمة الطلاق حيث تبقى ممتعة عن الزواج وتسمى (الطموح)^(١). ويعيش الأولاد في حالة الطلاق مع الأم حتى سن السابعة للذكر، والتاسعة للأنثى، ثم يعود الأولاد لأبيهم^(٢).

وحياة المرأة البدوية بشكل عام عسيرة جداً، فهي أول من يستيقظ لتحضير الخبز اليومي، وللحلب وتحضير السمن. كما أنها آخر من ينام، إذ ليس من المألوف أن تترك زوجها ساهراً مع ضيوفه وتنام، بل تنتظره وإن طال السهر^(٣).

وتقوم المرأة مقام الرجل في أكثر الأعمال، ولا يقوم الرجل بشيء من أعمالهن، ذلك أن عمل الرجل مقصور على الغارات والغزوات، وتكون المرأة رفيقة له في كثير منها. وإذا انقطع الزوج عن طلب السلب والدفاع كانت هي المكلفة بكل ما تستلزمه إدارة المعيشة والتربية^(٤). وكثيراً ما يبقى الرجال طوال النهار وجزءاً من الليل يشربون القهوة، بينما المرأة تقوم بالأعمال الشاقة مثل جلب الماء على ظهرها إن كانت فقيرة، أو على ظهور الحمير إن كان زوجها من الميسورين، ومثل إحضار الحطب، وجمع العشب، ورعي المواشي، وطحن الحبوب، وغزل الشعر والصوف، وخياطة الثياب^(٥).

(١) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٥؛ سلمان، خمسة أعوام، ص ٢٤٢؛ المصري، الزواج في مجتمع دمشق، ص ٨٨.

(٢) زكريا، المرجع السابق، ص ٢٣٣.

(٣) حميده، جغرافية سورية البشرية، ص ١٥٥.

(٤) البستاني، البدو، ص ٢٠٢، ٢٠٥.

(٥) زكريا، عشائر الشام، ج ٢، ص ٢٠٨.

الأوضاع الصحية:

تعتبر أمراض البدو قليلة إذا ما قورنت بالأمراض التي تصيب أهل المدن والقرى، وذلك بسبب تجنبهم الخلط في المأكولات من حار وحامض وحلو وبارد، وبسبب محافظتهم على العفاف والزواج المبكر، والهواء النقي والشمس المطهرة، وبساطة حياتهم الخالية من الهموم^(١).

وبسبب عدم الاهتمام بالنظافة انتشر القمل بينهم، وقد عدّوه دليلاً من دلائل الصحة^(٢).

ويلاحظ أن البدوي يشيخ سريعاً، ويكون جشمه هزياً، وضعيف البصر وذلك بسبب وهج الشمس وذرات الرمال التي يتعرض لها^(٣).

أما أهم الأمراض التي تصيب البدو فهي الطاعون والهواء الأصفر والجدي، وعندما يتعرضون لوباء فإنهم يفرون من مضاربهم تاركين مرضاهم يصارعون الموت، بعد أن يزودهم بالماء والزلاد^(٤). ويعتبر السل من الأمراض الشائعة بين البدو لسوء تغذيتهم وتعرضهم لقرصات البرد الشديدة^(٥).

أما العلاج عندهم فيعتمد على الأعشاب المتعارف عليها لكل مرض، واستخدموا مخ الجمل كدهون للجروح الخارجية أو الأمراض الباطنية ذات الأثر الخارجي، والكي سيد الأدوية عندهم^(٦). وهم عادة يخيطنون الجراح ويغسلونها بمستحلب بحر الحمير لمدة أربعة أيام.

ومن طرقهم الأخرى أنهم يغلون البصل بالماء ويصفونه ويغسلون به الجراح، ويسقون المصاب قليلاً منه لئلا ينكأ جرحه، ثم يغلون المر بالسمن ويجعلونه دهاناً فيدهنون به الجرح أربعين يوماً حتى يبرأ^(٧).

(١) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٣) البستاني، البدو، ص ٢٧٣.

(٤) زكريا، المرجع السابق، ص ٢١١.

(٥) حميدة، جغرافية سورية البشرية، ص ١٥٦.

(٦) زكريا، المرجع السابق، ص ٢٣٥.

(٧) المرجع نفسه، ص ٢١١.

ويهتم البدوي اهتماما كبيرا بجنس المولود، والولادة غالبا ما تتم بشكل طبيعي، حيث تقوم النساء المتقدمات بالسن بدور القابلات. وتقوم المرأة بمزاولة أعمالها المعتادة بعد ساعات قليلة من الولادة، وإذا لم تجد من يساعدها على الولادة تقوم بذلك بنفسها^(١).

وقد كانت الحكومة تبحث بمفتشي الصحة إلى البادية لمعرفة الأماكن الموبوءة ليتخذوا التدابير اللازمة للقضاء على الأوبئة، وكانت ترسل الأطباء إلى الأماكن المصابة، وتعزز وسائل الوقاية^(٢).

(١) زكريا، المراجع السابق، ص ٢١١؛ البستاني، البدو، ص ٢٧٣.

(٢) البشير، العدد ١٥٥٦، السنة ٣٣، ٢٥ آب ١٩٠٢م، ص ٣.

الخاتمة

بدأ اسم ولاية سورية يظهر في سאלنامه الدولة العثمانية اعتباراً من سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م، إلا أن حدودها لم تستقر في ذلك الحين، فقد فصل عنها لواء القدس، ثم ألوية طرابلس وبيروت وعكا واللاذقية ونابلس، واقتصرت في عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م على أربعة ألوية فقط هي: الشام وحماه وحران والكرك.

وشهدت ولاية سورية خلال فترة الدراسة تغيرات وتطورات كثيرة في مختلف المجالات الثقافية والحزبية والاقتصادية والصحية، وفي التنظيمات الإدارية والعسكرية أيضاً. كما أن سكانها لم يكونوا متجانسين إن دينياً أو عرقياً، فقد عاش فيها المسلمون والنصارى واليهود، كما عاش فيها العرب أصحابها الأصليون، وإلى جانبهم: الأتراك والأكراد والإيرانيون والأرمن والسريان وغيرهم. وكان المسلمون بأجناسهم المختلفة هم الذين يشكلون الغالبية العظمى من مجتمع الولاية، وبالتالي فإن غيرهم من أتباع الديانات الأخرى الذين انخرطوا في هذا المجتمع إنما عاشوا في كنفهم.

وقد تأثر المجتمع في أثناء العهد الأول من الحكم العثماني الذي استمر من عام ١٥١٦م إلى عام ١٨٣١م بما امتاز به ذلك الحكم من محافظة وجمود. ثم جرت محاولات للتجديد قام بها المصريون خلال فترة حكمهم لبلاد الشام، إلا أن تلك الفترة كانت قصيرة إذ لم تتجاوز العشر سنوات إلا قليلاً (١٨٣٠-١٨٤١م)، إذ عاد العثمانيون بعدها إلى حكم المنطقة بما فيها ولاية سورية، وحاولوا هذه المرة اتباع فلسفة جديدة في الحكم ترمي إلى تشديد القبضة على الولايات، والتجديد في المجالات المختلفة، والقيام بإصلاحات جذرية وخاصة في المجال العسكري بهدف تقوية الجيش العثماني أمام الجيوش الأوروبية الزاحفة نحو الشرق، وخاصة جيش فرنسا بقيادة نابليون. وفي المجال الاجتماعي اتجهت هذه الإصلاحات بالمجتمع نحو العلمانية، والخروج عن التنظيم الإسلامي للدولة. وكان الهدف الحقيقي من محاولات الإصلاح هو استرضاء الدول الأوروبية التي أخذت توجه الانتقادات الشديدة للدولة العثمانية، وتتهمها بالتمييز بين السكان.

وعبرت الدولة عن توجهاتها نحو الإصلاح بإصدار خط شريف كلخانة سنة ١٨٣٩م في عهد السلطان عبد المجيد، وقد تضمن وعداً من السلطان بتأمين الرعاية على أموالهم وأعراضهم وأرواحهم، وإصلاح الإدارة والقضاء، وتنظيم طلب العسكر، وتحديد مدة خدمتهم

في الجيش وإلغاء الالتزام، والقضاء على الرشوة، غير أن هذا الوعد لم ينفذ. وأمام ضغط الدول الأوروبية أصدر السلطان عبد المجيد خط التنظيمات الخيرية سنة ١٨٥٦م، وكان أهم ما جاء فيه: إقرار امتيازات الطوائف غير الإسلامية، والتسامح مع الذميين ومساواتهم من حيث المعاملة مع المسلمين. كما وعد هذا الخط بإجراء إصلاحات شاملة في مجالات المالية والمعارف والمواصلات والزراعة والتجارة. إلا أن هذه الوعود لم تؤدّ إلى الإصلاح المنشود، فقد ظلت حبراً على ورق.

وبرز في عهد السلطان عبد الحميد عدد من رجال الإصلاح الذين أخذوا يروجون لفكوة الحكم الدستوري، وراحوا يضغطون على السلطان حتى اضطره إلى إعلان دستور جديد للدولة اقتبسه عن دساتير الدول الأوروبية، وذلك عام ١٨٧٦م. وقد أعلن هذا الدستور المساواة بين جميع رعايا الدولة، وضمن الحقوق والحريات العامة للمسلمين، ودعا إلى إصلاحات جذرية. ولكن هذا الدستور لم يؤدّ إلى نتيجة تذكر في مجال الإصلاحات، وخاصة أن السلطان أمر في سنة ١٨٧٧م بحل البرلمان، وتعليق الدستور، وفرض حكماً مستبدّاً على البلاد. وظل الدستور معطلاً حتى سنة ١٩٠٨م عندما اضطر السلطان أمام ضغوط الجمعيات السرية إلى إعلان الدستور. وقد رحب الأهالي بإعلانه، وتنفسوا الصعداء. ولكن فرحتهم لم تتم، إذ قامت الرجعية العثمانية بثورة مضادة، وأعدت الأمور إلى ما كانت عليه من ظلم واستبداد. ومنع ذلك أدت الجهود الإصلاحية والتأثيرات الأوروبية إلى بروز ثلاث حركات مهمة تفاعلت معاً، وكان لها انعكاساتها على المجتمع، وهذه الحركات هي: حركة اليقظة العربية، وحركة الرأسمالية الأوروبية، وحركة إصلاح شؤون الدولة العثمانية. فمن تفاعل هذه الحركات بدأت تظهر بوادر الوعي والعمل من أجل الإصلاح، وهبت رياح التغيير على أنحاء ولاية سورية حيث كثرت المدارس، وانتشرت المطابع والصحف، وتولدت تيارات علمية وسياسية جديدة انبثقت عنها الجمعيات السياسية في مطلع القرن العشرين.

ويمكن لدارس الحياة الاجتماعية في ولاية سورية خلال الفترة المحددة بين سنتي ١٨٤١-١٩١٤م أن يستنتج ما يلي:

أولاً: تطور الوعي القومي بتأثيرات مختلفة، ومطالبة الدولة العثمانية بأن تعترف بحياة العرب الوطنية، وأن تطبق الإصلاحات التي وعدت بها أكثر من مرة؛ وهو وعي أفرز حركة القومية العربية بشكل عام، وفي ولاية سورية بشكل خاص، وتشكلت أحزاب وجمعيات سياسية أخذت تتادي بنهضة العرب في مختلف المجالات.

ثانياً: وكان المجتمع في ولاية سورية، بحكم تبعيتها للدولة العثمانية، مؤلفاً من عدة طبقات هي: الحكام، والقادة العسكريون، والولاة، والعلماء وأتباع الطرق الصوفية، والحرفيون والصناع.

ثالثاً: اختلفت الحياة الاجتماعية في المدن عنها في الريف عنها في البادية، وذلك بحكم طبيعة الحياة مقوماتها في كل من هذه الأماكن. وقد طال الاختلاف كل مظاهر الحياة من تركيبة أسرية، وأزياء، وأنواع أطعمة وأشربة، وعادات، وتقاليد، وأوضاع صحية وثقافية وتعليمية، وأمن.

رابعاً: كان مجتمع المدن أكثر تأثراً بالحركات الإصلاحية وأكثر تقبلاً لها من كل من مجتمع الريف والبادية. كما كان مجتمع الريف أكثر تأثراً وتقبلاً لها من مجتمع البادية، وهذا أمر طبيعي بسبب تفاوت الوعي بين هذه المجتمعات نظراً لطبيعة حياتهم المختلفة. فالمجتمع المستقر المتحضر مهياً أكثر بكثير لانتشار الثقافة والتعليم بين أفراد من المجتمع الذي ينشغل باستمرار من أجل تأمين لقمة العيش (الريف)، أو المجتمع الذي يتنقل من مكان إلى مكان، ويصرف معظم جهوده في أثناء حياته في الجري وراء ما يقيم أوده (البادية).

وفي ختام هذه الدراسة تود الباحثة أن توجه عناية الباحثين الآخرين إلى ضرورة القيام بدراسات تتناول حياة المجتمع خلال الفترات السابقة لفترة الدراسة، وذلك لتبين مدى التسلط العثماني على مقدرات الشعب العربي في ولاية سورية، وتأثير ذلك في فرض الجمود، وما أدى إليه من تفشي الجهل في المجتمع طوال القرون التي خضعت خلالها الولاية لحكم العثمانيين، وذلك لمعرفة مقدار ما ساهمت به الدولة العثمانية من جذب للمنطقة إلى وراء مما فرض عليها تخلفاً عانت من آثاره أزماناً طويلة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

أ. المصادر المخطوطة:

سجلات المحكمة الشرعية بدمشق، ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة

الأردنية:

١. سجل رقم ٣٦٩، سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤١م.
٢. سجل رقم ٣٧٠، سنة ١٢٥٧-١٢٥٨هـ/١٨٤٠-١٨٤١م.
٣. سجل رقم ٣٨٦، سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م.
٤. سجل رقم ٤٧٢، سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م.
٥. سجل رقم ٣٦٩، سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤١م.
٦. سجل رقم ٥٥٨، سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م.
٧. سجل رقم ٦١٤، سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م.
٨. سجل رقم ٦١٤، سنة ١٢٨٦-١٢٨٧هـ/١٨٦٩-١٨٧٠م.
٩. سجل رقم ٦٢١، سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م.
١٠. سجل رقم ٣٢١، سنة ١٢٨٤-١٢٨٧هـ/١٨٦٧-١٢٧٠م.
١١. سجل رقم ٦٥٠، سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.
١٢. سجل رقم ٦٥٠، سنة ١٣٢٤-١٣٢٥هـ/١١٩٠٦-١٩٠٧م.

ب. المصادر المطبوعة:

١. البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، د.ط، ٢ج، تحقيق محمد بهجة البيطار، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦١.
٢. الحاج سمير، حسر اللثام عن نكبات الشام، د.ط، القاهرة، ١٨٩٥م.
٣. الحصري، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات لتواريخ دمشق، د.ط، ٢ج، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٢٧م.
٤. الحكيم، يوسف، سورية والعهد العثماني، د.ط، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ت.
٥. الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، د.ط، تحقيق إحسان عباس، دار القلم للطباعة، بيروت، ١٩٧٥.
٦. ابن الحوراني، عثمان بن أحمد السويدي الدمشقي، الإشارات إلى أماكن الزيارات المسمى زيارات الشام، ط ١، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، مكتبة الغزالي، دمشق ١٩٨١م.
٧. الخالدي، أحمد سامح، رحلات في بلاد الشام، د.ط، شركة الطباعة اليابانية، دم، ١٩٤٦م.
٨. الخيارى، إبراهيم بن عبد الرحمن المدني (١٠٣٧-١٠٣٨هـ)، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، د.ط، ٢ج، تحقيق رجاء السامرائي، دن، دم، د.ت.
٩. الدستور العثماني، نوفل نعمة الله نوفلي، جزئين، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣٠١هـ/١٨٨٣م.
١٠. الدمشقي، أبو البقاء عبد الله بن محمد البدرى المصرى الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، د.ط، دن، القاهرة، ١٣٤١هـ.

١١. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م، ولايت سورية، مطبعة سنده، طبع اولنمشدر، ١٢٩٧هـ.

١٢. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣٠٠-١٣٠٢هـ/١٨٨١-١٨٨٣م، مكتوبي ولايت بهاء الدين بك، تربيت اولنمشدر، ١٢٠٠هـ.

١٣. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، سورية ولايتي، مطبعة سنده، طبع اولنمشدر، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م.

١٤. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، مكتوبي ولايت معرفتيله ترتيب اولنمشدر، ١٣٠٩هـ.

١٥. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣١٠-١٣١١هـ/١٨٩٢-١٨٩٣م، سورية ولايتي، مطبعة سنده، طبع اولنمشدر، ١٣٤٠هـ.

١٦. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣١١-١٣١٢هـ/١٨٩٣-١٨٩٤م، سورية ولايتي، مطبعة سنده، طبع اولنمشدر، ١٣١١هـ.

١٧. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م، دار الطباعة العامرة، دار سعادت، اولنمشدر، ١٣٤٠هـ.

١٨. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، سورية ولايتي، مطبعة سنده، طبع اولنمشدر، ١٣١٥هـ/١٨٩٧م.

١٩. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، مكتوبي تطار اوله رق اتربيت اولنمشدر ١٣١٦هـ/١٨٩٨م.

٢٠. سالنامه ولايت سورية، سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، سورية ولايتي، مطبعة سنده، ولايت سورية ١٣١٧هـ/١٨٩٩م.

٢١. الشطي، محمد جميل، روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر، د.ط، مطبعة دار اليقظة العربية، دمشق، ١٣٦٣هـ.

٢٢. الصالح، محمد بن علي بن طولون، ضوء السراج فيما قيل في النساء، د.ن، د.م، د.ت.

٢٣. القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية، د.ط، ٣م، تحقيق ظافر القاسمي، د.ن، د.م، د.ت.

٢٤. القاياتي، محمد عبد الجواد، نغمة البشام في رحلة البسام، د.ط، د.م، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.

٢٥. قساطلي، نعمان أفندي، الروض الغناء في دمشق الفيحاء، د.ط، د.ن، بيروت، ١٨٧٩م.

٢٦. القسوس، عودة، مذكرات عودة القسوس (١٨٧٧-١٩٤٣م) وثائق ووقائع من تاريخ شرق الأردن خلال ٧٠ عاماً، د.ط، د.ت.

٢٧. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الغزاري (٧٥٦-٨٢١هـ)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، د.ط، تحقيق إبراهيم الإبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.

٢٨. المنيني، أحمد بن صالح، الأعلام بفضائل الشام، د.ط، علق عليه أحمد سامح الخلادي، المطبعة المصرية، القدس، د.ت.

٢٩. النابلسي، عبد الغني (ت ١١٤٣هـ)، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، د.م، ١م، تقديم أحمد بن عبد المجيد الهريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، ١٩٨٦م.

٣٠. النعيمي، عبد القادر محمد بن النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، د.ط، ج٢، تحقيق جعفر الحسيني، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٨م.

ثانياً: المراجع:

أ. المراجع الحديثة باللغة العربية:

١. أبو صالح، عباس، سامي مكارم، تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، د.ط، منشورات المجلس الدرزي للبحوث، د.م، د.ت.
٢. أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، ط١، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، قدم له نبيه فارس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢.
٣. أنيس، محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤م)، د.ط، دار الجيل للطباعة، مصر د.ت.
٤. بازيل، قسطنطين، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، د.ط، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩م.
٥. باشا، مدحت، المذكرات، ط١، تعريب يوسف كمال بك حتاته، مطبعة هندية، مصر، ١٣٢٥هـ.
٦. برو، توفيق علي، العرب والترك في العهد العثماني (١٩٠٨-١٩١٤م)، د.ط، معهد الدراسات العربي، د.م، ١٩٦١م.
٧. بيركهات، رحلات بيركهات (رحلة سورية الجنوبية)، د.ط، ترجمة أنور عرفات، راجعه شكري المهدي، حسني فريز، عبد الرحمن بشناق، المطبعة الأردنية، عمان ١٩٦٩م.
٨. بيك، فردريك ج، تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، د.ط، تعريب بهاء الدين طوقان، د.م، ١٩٧٨م.
٩. الجالودي، عليان، قضاء عجلون في عصر التنظيمات العثمانية (١٨٦٤-١٩١٨م)، د.ط، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، جامعة اليرموك، ١٩٩٤م.
١٠. جوبسر، بيتر، السياسة والتغيير في الكرك - الأردن، د.ط، ترجمة خالد الكركي، مراجعة محمد البخيت، دن، عمان، ١٩٨٨م.

١١. حتي، فيليب، تاريخ العرب (مطول)، ط٤، تقديم إدوارد جرجي، جبرائيل جبور، دن، د.م، ١٩٦٥م.
١٢. حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د.ط، ج٢، ترجمة كمال اليازجي، أشوف على مراجعته جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.
١٣. حتي، فيليب، تاريخ لبنان، ط٢، ترجمة أنيس فريحه، مراجعة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م.
١٤. حسن، نجاه، حديث دمشق (١٨٨٤-١٩٨٣م)، ط١، دن، دمشق، ١٩٨٨م.
١٥. حمامي، حسن، الأزياء الشعبية وتقاليدھا في سورية، د.ط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧١م.
١٦. حميدة، عبد الرحمن، جغرافية سورية البشرية، د.ط، معهد البحوث والدراسات العربية، دمشق، ١٩٧١م.
١٧. حنا، عبد الله، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان (١٨٢٠-١٩٢٠م)، د.ط، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٥م.
١٨. خُغندوقة، محمد خير، ميرزا باشا وصفي، كتاب وثائقي، د.ط، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان، د.ت.
١٩. خير، صفوح، مدينة دمشق، د.ط، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٩م.
٢٠. دارفيو، الفارس، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ط١، ترجمة وتعليق أحمد أيش، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٢م.
٢١. دروزة، محمد عزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٤٩م.
٢٢. دهمان، محمد أحمد، في رحاب دمشق، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.

٢٣. الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي)، ط٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.
٢٤. رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦م)، ط٢، دن، دمشق، ١٩٣٣م.
٢٥. رافق، عبد الكريم، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، د.ط، دن، دمشق، ١٩٨٥م.
٢٦. رافق، عبد الكريم، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني حتى جملة نابليون (١٥١٦-١٧٩٨م)، ط١، دن، دمشق، ١٩٦٧م.
٢٧. رستم، أسد، آراء وأبحاث (١٨١٧-١٩٦٥م)، د.ط، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية، بيروت، ١٩٦٧م.
٢٨. الريماوي، سهيلة، الاتجاهات الفكرية للثورة العربية الكبرى من خلال جريدة القبلة، د.ط، لجنة تاريخ الأردن، عمان، ١٩٩٢م.
٢٩. الريماوي، سهيلة، الجمعية العربية الفتاة، دراسة وثائقية (١٩٠٩-١٩١٨م)، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٨م.
٣٠. زكريا، أحمد وصفي، الريف السوري، د.ط، ج١، دار البيان، دمشق، ١٩٥٥م، ج٢، د.ط، المطبعة العمومية، دمشق، ١٩٥٧م.
٣١. زكريا، أحمد وصفي، جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، د.ط، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٣٤م.
٣٢. زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام، ط١، ج١، قدم له غسان سبانو، دار الفكر، دمشق، ١٩٤٥م.
٣٣. الزواهره، تيسير، تاريخ الحياة الاجتماعية في لسواء دمشق (١٨٤٠-١٨٦٤م)، د.ط، منشورات جامعة مؤتة، عمادة البحث والدراسات العليا، عمان، ١٩٩٥م.
٣٤. سامي، عبد الرحمن بك، القول الحق في بيروت ودمشق، د.ط، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.

٣٥. سبانو، أحمد غسان، دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، د.ط، سلسلة دراسات ووثائق دمشق الشام، دار الكتاب العربي، د.م، د.ت.
٣٦. سلامة، غسان، المجتمع والدولة في المشرق العربي، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧م.
٣٧. سلمان، بولص، خمسة أعوام في شرقي الأردن، د.ط، مطبعة القديس بولس في حريصا، د.م، ١٩٢٩م.
٣٨. السواريه، نوفان، عمان وجوارها خلال الفترة ١٨٦٤-١٩٢١م، ط١، منشورات بنك الأعمال، عمان، ١٩٩٥م.
٣٩. شريف، محمد بديع وآخرون، دراسات تاريخية للنهضة العربية الحديثة، مراجعة شفيق غربال، د.ط، مطبعة الرسالة، د.م، د.ت.
٤٠. الشريف، منير، قصة الأرض في سورية، د.ط، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦١م.
٤١. شقيرات، أحمد، تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن (١٨٦٤-١٩١٨م)، د.ط، عمان، ١٩٩٢م.
٤٢. الشهابي، مصطفى، القومية العربية، تاريخها، قوامها، مراحلها، ط٢، د.ن، د.م، ١٩٥٨م.
٤٣. الصباغ، ليلي، المجتمع السوري العربي في مطلع العهد العثماني، د.ط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣م.
٤٤. صليبا، جميل، محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث، د.ط، د.ن، د.م، ١٩٥٨م.
٤٥. الطراونة، محمد غثيان، تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك (١٨٦٤-١٩١٨م)، د.ط، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٢م.

٤٦. عبد العزيز، عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢م)، د.ط، دار المعرفة الجامعية، د.ت.
٤٧. عبد الكريم، أحمد عزت، المقدمة في كتاب حوادث دمشق اليومية للبديري، تنقيح محمد سعيد القاسمي، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٥٩م.
٤٨. العبد، حسن آغا، تاريخ حسن آغا العبد، تحقيق يوسف نعييه، د.ط، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م.
٤٩. عبيدات، محمود سالم، الأردن في التاريخ، ط١، ج١، منشورات جروس - بروس، لبنان، ١٩٩٢م.
٥٠. عبيدات، محمود سالم، التطور الحضاري في الأردن خلال القرن العشرين، ط١، دار عمار، عمان، ١٩٩٠م.
٥١. العلاف، أحمد صبحي، دمشق في مطلع القرن العشرين، ط١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦م.
٥٢. علي، محمد كرد، المذكرات، د.ط، ٤ أجزاء، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٩م.
٥٣. علي، محمد كرد، خطط الشام، ط٢، ٦ أجزاء، دن، بيروت، ١٩٧٢م.
٥٤. علي، محمد كرد، غوطة دمشق، ط٢٠، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٢م.
٥٥. العوامري بك، أحمد، ومحمد أحمد جاد المولى بك، مهذب رحلة ابن بطوطة، د.ط، ج١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٣م.
٥٦. عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤م)، د.ط، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، مصر، د.ت.
٥٧. عوض، عبد العزيز، بحوث في تاريخ العرب الحديث (١٥١٤-١٩١٤م)، ط١، مكتبة المحتسب، عمان ١٩٨٣م.

٥٨. عوض، عبد العزيز، مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث (١٥١٤-١٩١٤)، ط١، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٨٣م.
٥٩. عياصوي، شارل، التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب (١٨٠٠-١٩١٤م)، ط١، ترجمة رؤوف عباس حامد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠م.
٦٠. غرايبة، عبد الكريم، العرب والأتراك، د.ط، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٦١م.
٦١. غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر (١٨٤٠-١٨٧٦م)، د.ط، دار الجيل للطباعة، دم، ١٩٦٢م.
٦٢. قازان، فؤاد، لبنان، د.ط، منشورات دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٢م.
٦٣. القسوس، عودة، القضاء البدوي ١٨٧١-١٩٤٣م، ط١، المطبعة الأردنية، غمّان، ١٩٣٦م.
٦٤. كوتلوف، ل.ن، حركات التحرر الوطني في المشرق العربي، د.ط، ترجمة سعيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨١م.
٦٥. كوثراني، وجيه، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (١٨٦٠-١٩٢٠م)، ط١، دن، بيروت، ١٩٧٦م.
٦٦. كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي، من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨م.
٦٧. لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ط٧، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠م.
٦٨. محافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب (١٨٩٧-١٩١٤م)، د.ط، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م.
٦٩. المحامي، محمد خير بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط٣، مطبعة التقدم، مصر، ١٩١٢م.
٧٠. المر، دعبس، قانون الأراضي العثمانية، د.ط، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٣م.
٧١. موسى، سليمان، من تاريخنا الحديث، د.ط، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان، ١٩٩٤م.

٧٢. موسى، علي، محمد حربية، محافظة حماه، د.ط، منشورات وزارة الثقافة، سورية، ١٩٨٥م.
٧٣. نسكايا، سيميليا، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، د.ط، تعريب عدنان جاموس، راجعه وقدم له سالم يوسف، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٢م.
٧٤. النصولي، أنيس، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ط١، حققه وقدم له د. عبد الله الطباع، دار ابن زيدون، بيروت، ١٩٨٥م.
٧٥. نعيسه، يوسف، مجتمع مدينة دمشق، ط١، جزآن، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، د.م، ١٩٨٦م.
٧٦. النمر، إحسان، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، د.ط، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٨م.
٧٧. بني، جرجي، تاريخ سورية، د.ط، المطبعة الوطنية، بيروت ١٨٨١م.

المراجع الحديثة باللغة الإنجليزية:

1. Cross, Ottoman Rule in Province of Damascus, First Edition, 1985.
2. Haddad, George, Fifty Years of Modern Syria and Lebanon, 1st Edition, Beirut, 1950.
3. Hitti, Philip K., History of Syria, 2nd Edition, New York, 1957.
4. Hitti, Philip K., Syria, A Short History, 1st Edition, New York, 1959.
5. Richard Nyrop, Syria, A Country Study, 1st Printing, The American University, 1979.
6. Ziadén, Nicola, Syria and Lebanon, 1st Edition, Beirut, 1965.

ج. الرسائل الجامعية:

١. جورج طريف، مدينة السلط وجوارها (١٢٨١-١٣٤١هـ)، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان الأردن، ١٩٩٣.
٢. خضر أحمد عباس عمران، الحياة الاجتماعية في ولاية حلب، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، سورية، ١٩٨٩م.
٣. عبد الله محمود حسين، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في نابلس (١٨٥٠-١٨٧٥م) من خلال وثائق المحاكم الشرعية، رسالة ماجستير، دمشق، ١٩٨٩م.
٤. قاسم مسعد الماضي، البيوت العربية في مدينة دمشق في الفترة العثمانية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٥م.
٥. محمد ماجد صلاح الدين، العلاقات العربية التركية في بلاد الشام، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٥م.
٦. هند غسان أبو الشعر، إربد وجوارها، ناحية بني عبيد (١٨٥٠-١٩٢٨م)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان - الأردن ١٩٩٤م.

ثالثاً: بحوث منشورة في:

١. كتاب لمجموعة مؤلفين:

- زياد المدني: التنظيمات العثمانية في ولاية سورية، في كتاب بحوث في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني، تحرير محمد عدنان البخيت، محمد يونس مرزوق، د. ط، الجامعة الأردنية، جامعة اليرموك، عمان، ١٩٩٢م.

٢. الدوريات:

١. الأرناؤوط، محمد، بدايات انتشار القهوة والمقاهي في بلاد الشام الجنوبية، مجلة اليرموك، عدد ٣٥، عمان، ١٩٩٢م، ٣٠-٣٣.
٢. أفندي، حبيب، داء السل وانتشاره في سورية، المشرق، مجلد ١، عدد ٢، لبنان ١٨٩٨م، ١١٩-١٢٣.
٣. البستاني، سليمان أفندي، البدو، المقتطف، م ١٢، ع ٥٤، بيروت، ١٨٨٧م، ١٤٥-٢١٧.
٤. جبري، شفيق، دمشق، مجلة المجمع العلمي، مجلد ٣٦، عدد ١٤، دمشق، ١٩٨٠م، ٥٢٩-٥٣٨.
٥. جحا، شفيق، التنظيمات أو حركة الإصلاحات في الإمبراطورية العثمانية (١٨٥٦-١٨٧٦م)، الأبحاث، م ١٨، عدد ١٨، بيروت ١٩٦٥م، ١٠٧-١٣٣.
٦. الحديدي، سعاد، صور من حياة المرأة العربية في درعا، العمران، م ٥٨، العدد ٣٣، درعا، ١٩٧٠م.
٧. رعد، عبد الله، القضاء عند عرب البادية، المجمع العلمي العربي، م ١٢، ج ٩، عدد ٥، دمشق ١٩٣٢م، ٥٣٥-٥٤٧.
٨. الريماوي، سهيلة، صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٨٥٠-١٩٠٨م)، دراسات تاريخية، عدد ٢، دمشق ١٩٨٢م، ١٣٤-١٥٦.
٩. سليمان، بولس، الحقوق البدوية في شرقي الأردن، المشرق مجلد ٣١، عدد ٢، لبنان ١٨٨٩م، ١٣٥-١٤٢.
١٠. سليمان، حسين، عوامل إقفار بلاد الشام في العصر العثماني، تاريخ العرب والعالم، مجلد ٤، عدد ٣٩، بيروت ١٩٨٢م، ٤٦-٥٣.

١١. شكاره، ضياء، القيم الاجتماعية والعادات العشائرية، التراث الشعبي، مجلد ١، جزء ١١، عدد ٦، العراق ١٩٧٠م، ٣-١٦.
١٢. طعمه، رامي، ملكية الأرض والسلطة السياسية في دمشق (١٨٥٨-١٩٨٥م)، دراسات تاريخية، مجلد ١٣، عدد ٤٣، دمشق ١٩٩٢م، ٢٦١-٢٨١.
١٣. عاشور، عصام، نظام المربعة في سورية ولبنان وفلسطين، الأبحاث، مجلد ١، جزء ٣، عدد ١، بيروت ١٩٤٨م، ٣٢-٤٨.
١٤. عبد الحميد، عبد الرحمن، العادات الاجتماعية وتقاليد الشعب في درعا، العمران، م ٥، العدد ٣٣، درعا ١٩٧٠م، ١٠٢-١١١.
١٥. العودات، حسين، التطور الاقتصادي والاجتماعي في محافظة درعا، العمران، مجلد ٥، عدد ٣٣، درعا ١٩٧٠م، ١١٤-١١٧.
١٦. عوض، عبد العزيز، نظام ملكية الأراضي في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية (١٨٣٩-١٩١٤م)، دراسات تاريخية، مجلد ١١، عدد ٣٥، دمشق ١٩٩٠م، ٥١-٥٨.
١٧. فرحان، يوسف، نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام (١٨٤٠-١٨٦٢م)، المشرق، مجلد ٢٤، عدد ١٠، لبنان، ١٩٧٦م، ٩١٥-٩٤٠.
١٨. فتوح، عيسى، تطور الأزياء النسائية في سورية ولبنان من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، التراث الشعبي، مجلد ٢، عدد ٦، العراق ١٩٨٠م، ٢٩-٣٤.
١٩. كرد علي، محمد، سوريا ولبنان، المقتطف، مجلد ٣٥، عدد ٥، بيروت، ١٩٠٩م، ١١٤٥-١١٦٥.
٢٠. كرد علي، محمد، عمران دمشق في القرون الحديثة، المقتطف، مجلد ٢٦، عدد ١، بيروت ١٩٠٣م، ٦٩١-٦٩٨.
٢١. كرد علي، محمد، لباس الرأس، المقتطف، مجلد ٢٩، عدد ١، بيروت ١٩٠٤م، ٢٦-٢٠٥.
٢٢. مخزوم، محمد، التنظيمات العثمانية محاولات فاشلة للإفلات من براثن التغلغل الأوروبي، تاريخ العرب والعالم، مجلد ٧، عدد ٧٧، بيروت ١٩٨٥م، ١٢-٢٤.
٢٣. المصري، عبد الفتاح، الزواج في مجتمع مدينة دمشق، من خلال أمثاله، التراث الشعبي، مجلد ١١، عدد ٣، العراق ١٩٨١م، ٧٩-٨٩.
٢٤. نعيسه، يوسف جميل، أوضاع الفلاحين في دمشق وصناعاتها (١٧٧٢-١٨٤٠م)، دراسات تاريخية، مجلد ٧، عدد ٢٣، دمشق، ١٩٨٦م، ٤٧-٦٩.

٢٥. نعيسه، يوسف جميل، ملكية الأراضي والعلاقات الزراعية في بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر، دراسات تاريخية، مجلد ١١، عدد ٣٥، دمشق ١٩٩٠، ١٦١-١٧٥.
٢٦. نكر، هنري، الأغذية في سورية، المشرق، مجلد ٨، عدد ٧، لبنان ١٩٠٥م، ٨٢-٨٥، ٢٩٩-٣٠٨.
٢٧. ورتبات، يوحنا، الأوبئة والأمراض الغالبة على سورية، المقتطف، مجلد ٣٠، عدد ٤، بيروت ٢٨١-٢٨٩.
٢٨. يزبك، يوسف إبراهيم، جمعية المقاصد الخيرية، أوراق لبنانية، مجلد ١، ج ٢، عدد ١، بيروت ١٩٥٥م، ٥٢-٥٤.
٢٩. يوسف، عبد الودود محمد، بنية الريف الحموي الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس عشر ونماذج من قراه، الحوليات الأثرية، مجلد ٢٠، جزء ١، عدد ٥، سورية ١٩٧٠م، ٢٩-٥٤.
٣٠. يوسف، عبد الودود محمد، طوائف الحرف والصناعات أو طوائف الأصناف في حماه في القرن السادس عشر، الحوليات الأثرية، مجلد ١٩، جزء ١، عدد ٥، سورية ١٩٦٩م، ٨٥-١٠٢.

٣. وقائع المؤتمرات:

١. حنا، عبد الله، تحركات العامة في دمشق وحلب في القرنين ١٨ و ١٩، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (١٥١٦-١٩٣٩)، المجلد الثاني، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق، ١٩٧٨م.
٢. خوري، فيليب شكري، طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق (١٨٦٠-١٩٠٨م)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، م ١، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق، ١٨٧٨م.
٣. الشطي، ضحى، توسع البدو في بلاد الشام وانحسارهم، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، م ١، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق، ١٩٧٨م.
٤. شليشر، ليندا، بعض مظاهر الأعيان بدمشق في أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن التاسع عشر، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، م ١، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق، ١٩٧٨م.

٥. طربين، أحمد، الحياة العلمية في بلاد الشام في القرن ١٣هـ من خلال ((حلية البشر في تاريخ القرن ١٣هـ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، م ٢، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق ١٩٧٨م.
٦. فاتر، شيري، وثائق البيع المثبتة في المحاكم الشرعية بدمشق في القرن ١٩، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، م ١، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق، ١٩٧٨م.
٧. موفاقا، محمد، الألبانيون، في سورية ودورهم في الحياة السورية، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، م ١، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق، ١٩٧٨م.

رابعاً: الصحف:

أ. الخبر:

١. الاتحاد العثماني: بيروت، ع ٩٢، ١٣ كانون ثاني، ١٩٠٩ م.
- ع ١٠٩، ٢ شباط، ١٩٠٢ م.
- ع ١٧٠، ١٣ نيسان، ١٩٠٩ م.
- ع ١٧٤، ١٧ نيسان، ١٩٠٩ م.
- ع ٢٣١، ٢٤ حزيران، ١٩٠٩ م.

٢. الأمة:

ع ١٠٤، ١٩١٠ م.

٣. البشير، بيروت،

- ع ٤٣٩، ٧ شباط، ١٨٧٩ م.
- ع ٤٨٤، ١ كانون أول، ١٨٨٩ م.
- ع ٩٢٢، ١٦ أيار، ١٨٨٨ م.
- ع ٩٢٣، ١٦ أيار، ١٨٨٨ م.
- ع ٩٥٠، ٢٨ أيار، ١٨٨٩ م.
- ع ١٠٦٨، ١٠ حزيران، ١٨٩١ م.
- ع ١٠٧٨، ٢٥ آب، ١٨٩١ م.
- ع ١٠٨٧، ٨ تشرين أول، ١٨٩١ م.
- ع ١١١٨، ٢٨ آذار، ١٨٩٤ م.
- ع ١١٢٧، ٣ أيار، ١٨٩٤ م.
- ع ١١٧٩، ٢٩ أيار، ١٨٩٥ م.
- ع ١٥١، ٢٤ تشرين ثاني، ١٨٩٤ م.
- ع ١١٧٦، ٢٨ أيار، ١٨٩٥ م.
- ع ١١٨٨، ٣٠ تموز، ١٨٩٥ م.
- ع ١١٩٥، ١٨ أيلول، ١٨٩٥ م.
- ع ١١٩٨، ٨ تشرين أول، ١٨٩٥ م.
- ع ١٢٠٢، ٥ تشرين ثاني، ١٨٩٥ م.
- ع ١٢٢٧، ٣٠ أيار، ١٨٩٥ م.

- ع ١٢٤٠، ٢٧ تموز، ١٨٨٦ م.
 ع ١٢٥٢، ٢٩ تشرين أول، ١٨٦٩ م.
 ع ١٢٥٦، ١٧ تشرين ثاني، ١٨٩٦ م.
 ع ١٢٦٢، ١ كانون أول، ١٨٩٦ م.
 ع ١٣٣١، ١٢ أيار، ١٨٩٨ م.
 ع ١٣٥٩، ١٢ تشرين ثاني، ١٨٩٨ م.
 ع ١٣٦٨، ١٦ كانون ثاني، ١٨٩٩ م.
 ع ١٣٦٩، ١٥ آب، ١٨٩٩ م.
 ع ١٣٧٠، ٣٠ كانون ثاني، ١٨٩٩ م.
 ع ١٣٨٦، ٢٠ أيار، ١٨٩٩ م.
 ع ١٣٨٨، ٥ حزيران، ١٨٩٩ م.
 ع ١٣٩٤، ٢٤ تموز، ١٨٩٩ م.
 ع ١٣٩٥، ١٨ أيلول، ١٨٩٥ م.
 ع ١٣٩٩، ٢٦ آب، ١٨٩٩ م.
 ع ١٤٤١، ١٨ حزيران، ١٩٠٠ م.
 ع ١٤٩٥، ١ تموز، ١٩٠١ م.
 ع ١٥٤٢، ٢٦ أيار، ١٩٠٢ م.
 ع ١٥٥٦، ٢٥ آب، ١٩٠٢ م.
 ع ١٥٧٥، ٢ كانون ثاني، ١٩٠٣ م.
 ع ١٤٦٤، ٢٦ تشرين أول، ١٩٠٣ م.
 ع ١٨١٣، ٨ تموز، ١٩٠٧ م.
 ع ١٨٥٨، ٢٤ شباط، ١٨٨٧ م.
 ع ٢١٩٢، ٢٦ تشرين ثاني، ١٩١٢ م.

- ع ١، ٢٤ كانون ثاني، ١٩١١ م.
 ع ١٠، ١٠ نيسان، ١٩١٣ م.
 ع ١٤، ١٢ أيار، ١٩١٢ م.
 ع ٣٠، ٢٩ آب، ١٩١٢ م.
 ع ٣١، ١ أيلول، ١٩١١ م.

٤. البيان: نيويورك،

٥. سورية: دمشق،
 ع ٩١٤، ٢٣ رجب ١٣٩٠هـ.
 ع ٩٨٠، ٢٧ أيلول ١٨٨٥م.
 ع ١٠٥٥، ٢٧ محرم ١٣٠٣هـ.
 ع ١٠٩٣، ١ كانون ثاني ١٨٨٨م.
 ع ١٢٢٥، ٢٠ ذي القعدة ١٣٠٤هـ.

٦. طرابلس: لبنان،
 ع ١٣٤، ١١ أيلول ١٨٩٥م.
 ع ١٦٤، ٨ تموز ١٩١٠م.
 ع ١٦٧، ١٠ آب ١٩١٠م.
 ع ١٦٨، ١٧ آب ١٩١٠م.

٧. العصر الجديد: دمشق،
 ع ٦٦، ٢١ تشرين أول ١٩٠٩م.
 ع ٧٠، ٢٦ تشرين ثاني ١٩٠٩م.
 ع ٩٦، ٢٥ تشرين ثاني ١٩٠٩م.
 ع ٩٨، ٢٩ تشرين ثاني ١٩٠٩م.
 ع ١٢٥٣، ٢٦ تشرين ثاني ١٨٩٦م.

٨. القبس: دمشق،
 ع ٢٢٢، ٢١ تشرين ثاني ١٩١٠م.
 ع ٢٣٨، ١٠ كانون أول ١٩١٠م.
 ع ٢٣٩، ١٢ كانون أول ١٩١٠م.
 ع ٢٤٢، ١٥ كانون أول ١٩١٠م.
 ع ٢٥٢، ٧ كانون ثاني ١٩١٠م.
 ع ٢٥٤، ٣٠ كانون أول ١٩١٠م.

١٠. المفيد: بيروت،
 ع ٣٩٨، ٢٤ أيار ١٩١٠م.
 ع ٤٥٠، ٢ آب ١٩١٠م.
 ع ٤٥٦، ١١ آب ١٩١٠م.
 ع ٤٥٩، ١٤ آب ١٩١٠م.
 ع ٤٧٣، ١٢ آب ١٩١٠م.

١١. المقتبس: دمشق،

- ع٤، ٢٠ كانون أول ١٩٠٨ م.
 ع٢٢٣، ١٦ أيلول ١٩١٠ م.
 ع٤٤٧، ١٤ آب ١٩١٤ م.
 ع٥٦١، ٣١ كانون أول ١٩١١ م.
 ع٥٦٢، ١ كانون أول ١٩١١ م.
 ع٥٦٣، ٢ كانون ثاني ١٩١١ م.
 ع٥٦٥، ٤ كانون ثاني ١٩١١ م.
 ع٥٧٣، ١٤ كانون ثاني ١٩١١ م.
 ع٥٧٤، ٢٢ كانون ثاني ١٩١١ م.
 ع٥٨٠، ٢٢ كانون ثاني ١٩١١ م.

Abstract

The Social Life in the Province Of Syria (1841-1914)

Proposed by

Abeer Mussa Al Ashran

Supervised by

Dr. Sohaila Al Reemawe

This study dealt with the social life in the province of Syria in five chapters during the period 1841-1914, the researcher gave a brief idea about the political and administrative situations in the province before the period of the study and during it.

The first chapter discussed the public conditions in the province. The second chapter dealt with the social classification there. The last three chapters discussed the social life in the city, the countryside, and the Badia consequently.

By studying the social life in the province of Syria during that limited era, it had become possible to recognize the Ottomani administrative organizations that had been implemented in the province. In addition to the categories of its inhabitants and their social, political and economic circumstances, besides, it had been possible to recognize the nature of the social life in the city, the countryside, and the Badia.

This study had also dealt with the most important characteristics of each society in the province, such as the traditions, the customs the food, the security and the health and cultural conditions.

Finally, this study included results that had been reached, it also included recommendations to other researchers to carry out other studies which might reveal the social life in the province during the previous periods of times of this study.